تذكرة المسؤولين

مسؤولية الوظيفة العامة بين ثقل التكليف وعظم الحساب

أ.د. عبد الله البر عبد الرحمن

تذكرة المسؤولين

مَسْؤُولِيَّـة الوَظِيفَـة العَامَّـة بيْن ثِقْـلِ التَّكْليــفِ وعِظَمِ الحِسَابِ

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعــة الأولــى ١٤٣٦ هـ ٢٠١٥م
الطبعــة الثانيــة ١٤٣٧هـ ٢٠١٦م

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

تذكرة المسؤولين

مَسْؤُوليَّة الوَظِيفَة العَامَّـة بيْن ثِقْلِ التَّكْليـفِ وعِظَمِ الحِسَابِ

ا.د. عَبدالله الزبير عبدالرحمن

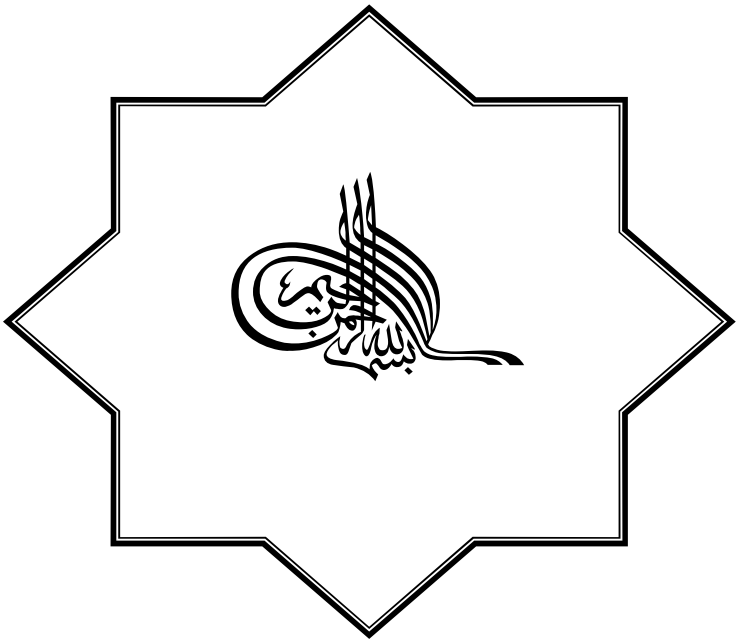
بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

الحمـــد لله رب العـــالمين، والصـــلاة والســـلام عـــلى أشرف الأنبيـــاء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،،،

فقـد جـاز السـودان بـلاء الانتخابـات الأخـيرة في أبريـل ٢٠١٥م إلى حكومة جديـدة منتخبـة بتشـكيل جديـد، لتتـولى أمـر إدارة الـبلاد في المرحلـة القادمـة. ولـذلك رأت (**أمانـة القيـادات**) أن تبتـدر هـذه المرحلـة الجديـدة بتـذكرة نافعـة ونصـيحة جامعـة للمسـؤولين في كآفـة المسـتويات القياديـة، تسـتدعي فيهـا أنمـوذج الأمـة في العصر ـ الأول ممـثلاً في النبـي ﷺ وصـحابته الكـرام ـ رضـوان الله علـيهم ـ ثـم التـابعين الـذين اتبعـوهم بإحسـان، وتبـين لهـم عظـم المسـؤولية في الإسـلام، وصـعوبة التكليـف وثقـل الأمانـة التـي عجزت السموات والأرضين والجبال الراسيات عن إطاقة حملها.

لـذلك طلبـت الأمانـة إلى أخينـا الكـريم الفاضـل الأسـتاذ الـدكتور/ عبد الله الـزبير عبـد الـرحمن ـ أمـين عـام مجمـع الفقـه الإسـلامي بالسُّـودان، إعداد رسـالة في هـذا الخصـوص موجهـة إلى قيـادات الدولـة، تبصّرـهم فيهـا بحقيقـة المسـؤولية العامـة، وتنـبههم إلى خطـورة التكليـف وثقـل التبعـة وتحـذّرهم مـن عظـم الحسـاب الـذي ينتظـر المقصّرـين. فجـاءت هـذه الرسـالة:(**تـذكرة المسـؤولين"مسـؤولية الوظيفـة العامـة بـين ثقـل التكليـف وعظـم الحسـاب**). وهـي زاخـرة بالشـواهد والأدلـة، مشـتملة عـلى الحَجـج

والأسانيد، متضمنة للأمثلة والأخبار والآثار في الموضوعات التي تناولتها.

هذه الرسالة هدفها توطين مفهوم (المسؤولية) القائم على حمل الأمانة وخدمة الأمة وتولية الأصلح والمصابرة على شدائد التكليف والحذر من سوء الحساب الأخروي.

شكر الله تعالى لأخينا عبد الله الزبير هذه الصفحات الناصعات، وهذه الكلمات الناصحات، وهذه العبارات الجامعات، ونفع بها بكل مسؤول مسلم حريص على سيادة دينه واستقامة أمره على منهاج الله عزّ وجلّ.

أمانة القيادات،،،،

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسائر المرسلين وعلى آلهم وأصحابهم الخيّرين وأتباعهم بإحسان أجمعين.

أما بعد:

فهذه صفحاتٌ واعظةٌ كُتبتْ بسنان المحبة والشفقة لنفسي وإخواني ممن ابتلاهم الله بأثقال تكاليف الولايات في بلادنا الشريفة التي جُمع فيها بين الأمراء والعلماء والتَأَمَ فيها السلطان مع القرآن، فأوجد الواقع حرصَ الأمراء بلسان الحال وإلحاح المقال على معرفة ما لهم وما عليهم من لسان العلماء، وما ينتظرهم إنْ أحسنوا أو أساءُوا عند رب البرية يوم الدين في محشر اللقاء، فجاءني التكليف الثقيل بإعداد ذلك المطلب، ليكون مرشداً معيناً للعقول، وموعظةً حاضرةً للقلوب، ودرساً زاكياً للنفوس!!..

عسى أن أكون أول من ينتفع به، وتتزكَّى نفسه عليه، ويبادر قلبه إلى التزامه، لنكون جميعاً من ذوي الصدور الواعية، والعقول الفاهمة، والذوات العاملة، والقلوب المطمئنة إلى انتمائه وصدقه ووفائه للعهد، شعاره ودثاره مع الله وعباده ومع أهله ورعيته: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

فلتكن هذه الرسالة تذكرة لمن غفل عن حقائق ما هو عليه، وذكرى لمن

كان يرجو لقاء ربه والاستقامة على أمره، وأراد التصحيح، وابتغى القول النصيح، فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

وقد جعلتها في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في التعريف والمفهوم والحكم التكليفي لهذه الوظائف والمناصب.

والفصل الثاني: جعلته في مثالب التكليف ومسالب التوظيف لبيان كيفَ أن هذه الوظائف والمناصب تكاليفها ثقيلة وتبعاتها تنوء بالعصبة أولي القوة..

والفصل الثالث: جُعل في عظم الحساب الجامع لعظيم المحاسبة وعظيم المعاقبة، مزيداً على ذلك بنماذج الزهد عن المناصب لما يتوقعونه لسوء العواقب من ثلّة فاضلة من أئمة هذا الدين وعلماء هذه الأمة من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والصالحين رحمة الله تعالى عليهم.

ومع أنّ هذه الرسالة أُلزمت بكتابتها إلزاماً ممن يجب عليّ طاعته وأحبّ موافقته؛ إلا إنني أرجو أن أقدّم ما فيها من معانٍ ومبانٍ ومبادئ ومواعظ، هدية من أخٍ محبٍّ لإخوانه، راجٍ لهم خير الحياة في الدنيا وحسن النجاة في الآخرة. وأقول ما قيل في مثلها:[1].

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٩ ص ٤٩٢.

الناس يهدون على قـدرهـــم لكنني أهدي على قـدري

يهدون ما يَفْنَى وأهدي الــذي يبقى على الأيام والدهــرِ

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنـا اجتنابـه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفقير إلى رحمة ربه ومولاه

أ.د. عبد الله الشيخ عبد الرحمن

الفصل الأول

الوظيفة العامة وحكمها التكليفي

المبحث الأول

مفهوم الوظيفــة العامـــة

الوظيفة بمعنى المهمة والولاية كانت معروفة منذ قـرون كثـيرة، فقـد عـبّر نجم الدين الطرسوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القرن الثامن (ت ٧٥٨هـ)في كتابـه " تحفـة الترك فيما يجب أن يُعمل في الملك"بالوظيفة عن ولاية مهمات في القضاء، وذلـك في قوله: «ويَبحثُ السلطانُ عما وقع من القاضي، فإنْ كان من سهوٍ وغفلةٍ ، قَبِلَ عذْرَه ، وإن كان عمداً؛ عزله، وولى غيره ، وولى الوظيفة لرافع القصـة ، إن كـان من أهلها».. وفي قوله « وأما تولية الحُجَّاب ، فينبغي للسلطان أن ينتخـب لهـذه الوظيفة من الأمراء من يكون عاقلاً ديناً عفيفاً..»[1].

وفي جواهر العقود لشمس الدين الأسيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ موارد كثيرة استخدم فيها مصطلح الوظيفة في الولاية العامة مـن القضـاء والحسـبة والـوزارة ونحـو ذلك[2].

وسمَّى ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض الإدارات القضائية كالكُتَّاب والعـدول ونحوها بالوظيفة فقال فيها: « وهي وظيفة دينية تابعـة للقضـاء، حقيقتهـا قيـام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس، فيما لهم، وعليهم، تحملاً عنـد الأداء وأداء

(١) تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، نجم الدين الطرسوسي إبراهيم بن علي بن أحمـد، ص ٣٣، ٤١. تحقيق عبدالكريم الحمداوي.

(٢) راجع على سبيل المثال: ج٢ ص٣٠٠، ص ٣١٦ ص ٤٧٢.

عند التنازع وكتاباً في السجلات لحفظ الحقوق والمعاملات»[1].

بل سمَّى الإمام القلقشندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "مآثر الإنافة" الوزارة وسائر الإمارات الكبرى في الدولة بالوظائف في قوله: «الْوَظَائِف الَّتِي كَانَت تصدر عَن الْخَلِيفَة فِي الزَّمن الْمُتَقَدّم وَمَا يصدر عَنهُ الْآن ... عشر وظائف، الْوَظِيفَة: الأولى الوزارة.. الوظيفة الثانية: الإمارة.. الوظيفة الثالثة: الإمارة على القتال.. الوظيفة الرابعة: القضاء.. الوظيفة الخامسة: ولاية المظالم.. الوظيفة السادسة: النقابة على ذوي الأنساب، الوظيفة السابعة: النظر على إقامة الصلوات الخمس.. الوظيفة الثامنة: الإمارة على الحج، الوظيفة التاسعة: جباية الصدقات، الوظيفة العاشرة: النظر في الحسبة »[2]..

فتبين أن الوظيفة العامة من قرونٍ بعيدة تطلق على مهام الولايات العامة في الدولة، كما أنها تصدق أكثر ما تصدق على الوظائف الكبرى التي تسمى بالمناصب، ولذلك سنعبّر في هذه الورقة عن هذه الوظائف بالمناصب وعن المناصب بالوظائف وهكذا..

وعلى العموم: يمكننا تعريف الوظيفة العامة بأنها:

« **الولاية بمهمات وسلطات على وجه التفويض أو التنفيذ، لتقديم خدمةٍ**

(١) بدائع السلك في طبائع الملك، للأبي عبد الله بن الأزرق، ص ٤٩.

(٢) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، للقلقشندي أحمد بن علي الفزاري، تحقيق عبد الستار فراج، ج١ ص ٧٣ ـ ٧٩.

ورسالةٍ للمجتمع والدولة، تقوم على الضبط والتوجيه وتطبيق الشريعة، ليكون الناس أقربَ إلى الصلاح وأبعدَ عن الفساد»[1].

فتشمل بذلك الخلفاء والرؤساء والأمراء والوزراء والقضاة ومن دونهم من رؤساء الوحدات والوزارات والمؤسسات الخادمة للدولة والمجتمع.

ويُعرف بذلك أنها جامعة بين الخدمة والرسالة، فهي ليست خدمات مجردة تقدَّم للناس، ولا خدمات تنجز للدولة المولية إرضاءً للسلطان أو الناس؛ بل هي كذلك رسالة ذات قيم ومبادئ ينطلق بهن الموظف العام صاحب تلك الولاية إرضاءً لله ﷻ ورسوله ﷺ والمؤمنين، تحتوي مضامين ومقاصدَ عليا سامية تعبّر عن مجتمع المسلمين القاصد إلى التميّز الخلقي والسلوكي عن العالمين وفق شرع رب العالمين.

أمَّا المسؤولية:

فهي تعبيرٌ عما يجب على متولي هذه الوظائف مادياً ومعنوياً، بمعنى أنه مطلوب منه على جهة الإلزام والإيجاب القيام بتدبير شؤون تلك الوظيفة ورعاية مصالحها وتحقيق مطلوباتها الضرورية والحاجية والتحسينية على وجه يكون به قد بذل كل وسعه وجميع طاقته مما هو ممكن لمثله.

---

(١) استفدت هذا التعريف من : كلام لأستاذنا أ.د. إبراهيم عبد الصادق، في كتابه الاختيار للوظيفة العامة، ص ١١٠، وابن القيم في كتابه الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ص ١٠ - ١١.

والمسؤولية في الإسلام تتميز عن غيره فكراً ومنهاجاً وسلوكاً. فهي ليست مسؤولية الضمير أو مسؤولية القانون، وهي ليست مسؤولية أمام الذات أو النفس، ولا أمام الرئيس أو القائد، ولا هي مسؤولية تجاه المجتمع فحسب، بل هي مسؤولية تجاه كل أولئك، وفوق ذلك؛ هي مسؤولية الإنسان أمام الله تعالى مباشرة.

لذلك فالمسؤولية في نظرنا الديني والتشريعي مسؤولية لا تقف عند الحدود الظاهرة من الأحوال والأفعال فحسب، بل تتناول النوايا وما تخفي الصدور، والله عليم بذات الصدور وهو على كل شيء شهيد، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وبذلك يكون الإنسان المسؤول مسؤولاً عن نواياه ومسؤولاً عما يفعل.

فالمسؤولية أمانة في عنق كل فرد مسلم سواء أكانوا أفراداً أم جماعات، وسواء أكان هذا المسلم مسؤولاً بولاية زمنية أم ولاية دينية، تنشأُ عنها واجباتٌ تتطلب تحقيقها بكل سبيل متاح، وأصدق تعبير لمعاني المسؤولية حديث المصطفى ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته)[1] .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٨٩٣، و٢٤٠٩، والترمذي برقم ١٧٠٥، وأحمد في المسند برقم ٤٤٩٥. وغيرهم.

وعلى هذا:

فالمسؤول المسلم هو ذاك المكلّف الحريص على أهله وأمته ودينه، العزيز عليه عنت رعيته وتابعيه ومشاقهم..

هو ذاك الذي عمر قلبه الإيمان، وزكت نفسه بالقرآن، واستقام أمره على شريعة الرحمن !!..

هو كل مسؤول مقتدٍ في مهمته بسلف خيرين صالحين، مهتدٍ في سلوكه فيها بهدي النبيين يتمثّل في خلقه خلق من كان خلقه القرآن ﷺ .

هو ذاك المسؤول المسلم الذي لا يرى شرفه ولا عزّته ولا رفعته إلا بإعزاز دينه والاعتزاز بملّته وأمّته، فذاك عنده الشرف الأسمى والفخر الأسنى والمجد الأرفع، يتمثّل حالاً وفعالاً قول من قال:

ومما زادني شرفاً وتيهاً ... وكِدتُ بأُخمصي أطأُ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي ... وأنْ صيَّرتَ أحمد لي نبيّا

هو ذلك المسؤول الذي لا تنقطع حاجته إلى التذكير، ولا تنتهي رغبته في سماع النصح، بل محبٌّ للناصحين والمذكّرين، يقبل النصح على كل حالٍ؛ من شديد المقال وليِّنه، ومن سديد الرأي وهيّنه، ومن جميل النصح وشيّنه، ثم لا يتردد في الأخذ بأحسنه وفي التنزيل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر:١٧، ١٨].

هو ذاك المسؤول الراشديّ يقوم على مسؤولياته تجاه البلاد والعباد بعمامة الصدّيق، وأحاسيس ابن الخطاب، وبذل ذي النورين، وعلى خُطَى أبي التراب رضوان الله تعالى عليهم..

بعمامة أبي بكر رضي الله عنه محققاً شعاره: " أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له الحق، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق"..

وبأحاسيس عمر رضي الله عنه ومشاعره الرحيمة تجاه الخلائق فلاينام ليلاً ولا يقيل نهاراً يصرّح في المدينةبالحجاز : " لو أنّ بغلة عثرت بالعراق لخشيت أن يسألني الله لِمَ لَمْ تسوِّ لها الطريق! "..

وبذل عثمان رضي الله عنه حين يفدي الأمة وأمنها واستقرارها بدمه الطاهر..

وبزهد عليٍّ رضي الله عنه حين أخذ بريق الذهب والفضة ببصره فأعمل بصيرته ينادي: " يا صفراء ويا بيضاء! غُرِّي غيري!! يا دنيا إليّ تعرّضت أم بي تشوفت؟! هيهات هيهات! غُرِّي غيري!! قد بنتك ثلاثاً ـ أي طلقتك ـ لا رجعة لي فيك، فعمرك قصيرٌ، وعيشك حقير، وخطرك كبير"..[1].

❐❐❐

(١) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيثمي، ص ٤١، مقدمة ابن خلدون، ج١ ص ١٠٥، تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٢٤ ص ٤٠١، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور، ج٤ ص ٣٤،

المبحث الثاني

الحكم التكليفي للوظيفة العامة

أجمعت الأمة والأئمة على وجوب نصب إمام للأمّة يسمع له ويطاع وتنفّذ به أحكام الشرع، يمنعهم من التظالم ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، يحفظ لهم دينهم، ويحرس عليهم ملتهم، ويقيم فيهم تعاليم ربهم وهدي نبيهم ﷺ، ويجاهد بهم عدوهم، ويرعى لهم مصالحهم، ويحمي بيضتهم ودولتهم.

ولم يخالف في وجوب ذلك إلا الأصمّ من المعتزلة، وكما يقول الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمّة ولا بين الأئمّة إلا ما رُوي عن الأصمّ حيث كان عن الشريعة أصمّ »[1].

ونصْب إمامٍ يستلزم إقامة دولة، ووجود الدولة يقتضي لزوماً وجود وظائف عامة وولايات هامة لا تسير أمور الدولة ولا تدبّر إلا بإيجادها وإقامتها، وهذا يعني بلا امتراء ولا جدال طويل وجوب إيجاد الوظائف العامة في الدولة وتولية القادرين على تدبير أمرها وإدارة شأنها ضرورة.

ثمّ إنّ العقل يلزم بإيجاد هذه الوظائف والولايات العامة في الدولة، لأنّ إمام المسلمين ولي أمرهم ورئيس دولتهم لا يقدر عادة على مباشرة ما وكِّل إليه

(١) تفسير القرطبي ج١ ص ٣٩٥في تفسير قوله تعالى ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾، وراجع: الأحكام السلطانية للماوردي، ص ٥، والأصم خالف في وجوب تنصيب ولي أمر وقيام دولة للمسلمين ورأى أن ذلك لا يجب.

من تدبير شؤون الأمة جميعها بنفسه، إلا باستنابة، فكان لا بدّ من نائب له يشاركه أمره، ومن وزير يشدّ أزره، ومن عامل يلم شعثه، ومن قاض يقيم عدله، ومن قائد يقود جيشه يحمي بهم أرضه ويرد بهم عدوه، ومن مستشار يرفد عقله. كلهم يشاركونه في تدبير الإمامة وتسيير الإمارة وتنفيذ أموره ليكون بذلك أبعد من الزلل، وأمنع من الخلل، وهذا هو المعنى الذي لأجله سأل نبي الله موسى عليه السلام ربه بقوله ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴾ [طه: ٢٩ - ٣٥].

وهذا الوجوب ملزمٌ لولاة أمر الأمة من الأئمة (الرؤساء والملوك)، ويبدو ذلك جليّاً بيّناً من حديث النّبي المصطفى ﷺ: (من تولى من أمر المسلمين شيئاً فاستعمل عليهم رجلاً وهو يعلم أنّ فيهم من هو أوْلَى بذلك وأعلم منه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقد خان الله ورسوله وجميع المؤمنين)[1].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل.. فيجب عليه البحث عن

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد(ج٢ ص ٣٦٠): رواه الطبراني وفيه أبو محمد الجزري حمزة ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح. وفي مستدرك الحاكم ومسند أحمد وغيرهما: (من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم) مستدرك الحاكم برقم ٧١٢٤، ومسند أحمد برقم ٢١. وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار، من الأمراء الذي هم نواب ذي السلطان، والقضاة، ونحوهم من أمراء الأجناد ومقدمي العساكر الصغار والكبار، وولاة الأموال من الوزراء والكتّاب والشادين والسعاة على الخراج والصدقات، وغير ذلك.. وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده»[1].

بينما بعض علماء الأمة لا يرى الوجوب منحصراً في الإمام (ولي الأمر) أو الرئيس؛ بل يرى وجوب إقامة هذه الوظائف وتولية من يصلح لها على المسلمين جميعاً ، وقد نقل الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعضهم أنه قال: «يجب على المسلمين نصب الأئمة والولاة والحكام»[2]. فالولاة هم ولاة الولايات المختلفة ـ وهم الموظفون العموميون ـ كما نسميهم اليوم، والحكام يُقصد بهم القضاة غالباً في إطلاقات الفقهاء، فعرفنا أنّ بعض علماء الأمة يوجبون على المسلمين جميعاً إقامة من يتولى أمر هذه الوظائف والولايات العامة، وأنّ الوجوب ليس قاصراً على الأئمة ولاة أمر الأمة.

ومن يتدبّر حديث أمنا الصديقة عائشة رضي الله عنها يجد أنّ أمر الوظائف العامة من الوزارات والولايات المختلفة اللازمة لتسيير شؤون الدولة هو أمرٌ

(١) السياسة الشرعية ، لابن تيمية، ص ٧ ـ ٨ ، طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية المملكة العربية السعودية طبعة ١٤١٩هـ.

(٢) نيل الأوطار للشوكاني، ج٨ ص ٣٤٢ - ٣٤٣.

إلهي وتدبير رباني، وقد روت رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: (من ولاه الله ﷻ من أمر المسلمين شيئاً فأراد به خيراً؛ جعل له وزير صدق، فإنْ نسي ذكَّره وإنْ ذكر أعانه)[1].

والوزارة وظيفة عامة ومثلها الوظائف الأخرى، فثبت وجوب إقامة هذه الولايات والوظائف ونصب من يصلحون ولاةً عليها.

❐❐❐

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم ٢٣٢٧٨، والطبراني في المعجم الأوسط برقم ٤٣٩١.

المبحث الثالث

الوظائف بين التقليد والتقلّد

هذه المناصب والوظائف في النظر الشرعي من فروض الكفايات، يجب على ولي الأمر أن يعيّن فيها من يُستكفَى به، وإلاّ أثم.

وإنْ كان الناس اليوم ينظرون إلى هذه الوظائف نظرات ثلاث:

أولاها: أنها تكليفٌ لا غير..

والثانية: أنها تشريفٌ..

والنظرة الثالثة: تراها أنها تكليفٌ وتشريفٌ معاً.

وكونها تكليفاً يعني تغليب جانب المشقة والعنت وسوء العاقبة إنْ قصّر وتساهل في تدبيرها..

وكونها تشريفاً يعني أنها رفعةٌ دنيوية ـ وربما دينية ـ وغنىً أرضيٌّ، يرى هؤلاء أن السعيد من تولاَّها، وأن الحَظوظ من تقلّدها ، وأن الغانم من غنم بولايتها..

والحقيقة التي ربما غفل عنها الكثيرون؛ أنها في غالبها تكليفٌ لا تشريف، يُنتج العنت والمشقة وسوء العاقبة وسوء الحساب لمن تولاها، لاسيما إنْ قصّر أو تعدَّى، وأهمل ما عليه وما أدَّى!!.. وما هذا بتشريف أبداً، والله المستعان العفوّ الكريم..

ولهذا:

ليس من العقل ولا من الحكمة في شيء أن يسعى المسلم في توليها وتقلّدها، بل ما يقتضيه العقل وتمليه الحكمة؛ أن يفرّ منها فرار الحُمُر من القَسْورة، وأن يهرب منها هروب السليم من المجروب والمجذوم.

إنّ الكثيرين يراهم الناس وهم يلهثون وراء هذه الوظائف لَهْث الكلاب إلى مرامي الجيف، كأنهم لو لم يقلَّدوها لما عاشوا ، ولو لم يولّوها لم يعزّوا!!..

والموقف السليم للمسلم القويم من هذه الوظائف ما يلي:

أولاً:

لا ينبغي له أن يسعى لها سعياً، بلْهَ أن يلهث وراءها وينافس في تحصيلها ويطلب تقلدها قبل أن يُطلب منه ! فهذا في حقّه مكروه في الأصل، فإنْ كان قصده ومراده بذلك طلب الدنيا والعلو في الأرض رجاء مغانمها والاعتزاز بها؛ صار في حقّه سعياً محرماً.

فهذا الصنف من طلاب الوظائف العامة ضعفاء أمام نفوسهم وركعاء تحت ركائب الدنيا، مقصدهم الذي يسعون لتحقيقه دنيء، ومرادهم منه غير حميد فكان سعيهم غير مشكور، ولهذا لا ينبغي أن يولّى مثل هذا بحال.

بالله إنْ كان رسول الله ﷺ يحذّر صاحبه الوفيّ الحفيّ أبا ذر رضي الله عنه من توليها معللاً ذلك بضعفه فكيف بكثيرٍ منَّا اليوم؟!! وذلك لمّا قال له : يَا رَسُولَ اللهِ ! أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ فَضَرَبَ النبيﷺ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِه، ثُمَّ قَالَ: (يَا أَبَا ذَرٍّ!

إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا)[1].

وما ضعف أبي ذر يا ترى؟ وهو الذي كان يصدع بالحق فيما يعتقده حقاً ولا يخشى فيه لومة لائم حتى نُفي بالربذة؟. وهو الذي كان لا يخاف وحشاً ولا هواماً يسير وحيداً ويعيش وحيداً كما أخبر عنه حبيبه وصفيه محمد ﷺ؟.

هذه الأوصاف والأحوال دليل قوة لا دليل ضعف، ومع ذلك وصفه النبي ﷺ بأنه ضعيف وحذّره من الإمارة. وهذا يعني أنّ الضعف قد يكون في قلة الصبر أو قلة الحلم أو في قلة الحكمة أو في ضعف التقدير للأمور وعدم الترجيح للراجح أو التقديم للصالح أو غير ذلك مما يؤثر أحياناً في أمور الولايات بما يضيع به الحق وتجلب به المفسدة وتطرح به المصلحة ويَدخل الشأن العام في حرج وعنت ومشقة.

وإنّ مما يدلّ على كراهة الطلب لهذه الوظائف لتوليها؛ أنّ طالبها لا يولاها لأنّ في طلبه له دليلاً على تعلق نفسي أو قلبي يشي بحرص دنيوي وراءه، وطلاب الدنيا لا يمكّنون من هذه الولايات لأنها في حقيقتها : خلافة عن النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٣٤٠٤، والحاكم في المستدرك برقم ٧١١٩، والبيهقي في معرفة السنن برقم ٦٠٣٠، وابن أبي شيبة في المصنف برقم ٣٣٢٠٧، والطيالسي في مسنده برقم ٤٨١.

وقد منعها النبي ﷺ من سألها وطلبها كما في خبر أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ يَا رَسُولَ اللهَّ أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللهُّ عَزَّ وَجَلَّ وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَالَ إِنَّا وَاللهِّ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ)[1]. وفي رواية الطيالسي يقول أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فبعثني وتركهما[2].. وفي رواية لأحمد: "قال: (إن أَخْونكم عندنا من يطلبه) فلم يستعن بهما في شيء حتى مات)[3].

والمعنى والله أعلم: أنّ طلب الإمارة والسعي لتوليها، والحرص عليها من دلائل الخيانة وأماراتها مما يستوجب منعه وعدم الاستعانة به فيها، لأن سؤاله لذلك وحرصه عليه يشعر أنه لم يسع في ذلك لنفع الإسلام والمسلمين، وإنما سعى لنفع نفسه، لجمع الدنيا وتكثيرها، وفي ذلك إفسادٌ لأمر الناس دنيا وأخرى وإهلاك له.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: « لا يحب الإمارة أحدٌ فيعدل»[4].

ولهذا قال سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إذا رأيت الرجل يحرص على أن يؤمَّر

(١) أخرجه الشيخان وغيرهما، البخاري برقم ٦٦١٦، ومسلم برقم ٣٤٠٢، واللفظ له.

(٢) مسند الطيالسي برقم ٥٢٧.

(٣) فتح الباري، لابن حجر، ج١٣ ص ٣٨٠.

(٤) تاريخ المدينة ، لابن شبة ، ج٣ ص ٨٥٦.

فأخِّره»[1].

بل كان من نصيحة خير البشر الحريص على خير البشر في عمومهم وعلى خير المؤمنين بخصوصهم لأصحابه حتى قال ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه: يا عبد الرحمن بن سمرة! لا تسأل الإمارة! فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها)[2].

ولما قال الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عمّ النبي ﷺ: يَا رَسُولَ الله ! أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ له النبي ﷺ: يَا عَبَّاسُ! يَا عَمَّ رَسُولِ الله! نَفْسٌ تُنَجِّيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لاَ تُحْصِيهَا)[3].

ففي الحديث الأول نهي صريح من رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فدلّ أن طلب الإمارة في أصله منهي عنه، سواء أكان النهي دالاً على التحريم أو الكراهة.

وقد ذهب الإمام أبو العباس القرطبي المحدث رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن النهي هاهنا للتحريم فجعل طلب الإمارة من السؤال المحرم المحظور، قال رحمه الله: «والنهي ظاهره التحريم ويدل عليه ظاهر قوله بعد: إنا والله لا نولي هذا العمل

(١) شرح السنة، للبغوي، ج ١٠ ص ٥٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٦٦١٣، و٦٢٢٧، و٦١٣٢، وأحمد في مسنده برقم ١٩٧٠٤، والدارمي في سننه برقم ٢٤٠١، وابن أبي شيبة في المصنف برقم ٣٣٢١٠، وعبد الرزاق في المصنف برقم ٢٠٦٥٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم ٣٣٢١١.

أحداً سأله أو حرص عليه»[1].

وفي حديث العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تنبيه من رسول الله ﷺ لعمه أن الإمارة ليست تشريفاً ولا مغنماً وأن خيرها قليل وأن عاقبتها وخيمة وأن السداد عدم الحرص عليها والهروب منها، فكانت الدلالة أقرب إلى الكراهة من الحرمة.

وعلى كل حال: ليس من الحكمة ولا من العقل طلب الإمارة والسعي إلى توليها، بل الهروب والفرار منها، وعدم التعرّض لها والحرص عليها ، وقول النبي ﷺ لعمّه العباس رضي الله عنه : (نَفْسٌ تُنَجِّيهَا خَيْرٌ مِنْ إمَارَةٍ لاَ تُحْصِيهَا) نصيحة نبي لعم النبي أن يبتعد عن هذه الوظائف والولايات، لأنّ نجاة النفس في عدم تولّيها، وإلا ! فما يعقب تولّيها من سوء العاقبة وشرّ التبعة ما لا يحصيها.

ويكفي طالب الولاية الساعي لتقلّد هذه الوظائف أنه إنْ وُلِّيَها بطلبٍ منه وسعيٍ؛ وُكِلَها إلى نفسه من غير أن يُعان عليها من الله، وفي هذا والله غاية التنبيه ومنتهى التحذير لطلاب الوزارة والإمارة من سوء ما يفعلون بسعيهم إليها وطلبهم إياها. وفي حديث ابن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رواية أبي داود: (فَإِنَّكَ إِذَا أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ فِيهَا إِلَى نَفْسِكَ وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا)[2].

(١) دليل الفالحين شرح رياض الصالحين، ابن علان، ج٥ ص ١٥٥.

(٢) سنن أبي داود حديث رقم ٢٥٤٠، ج٤ ص ١٤٧.

فالموقف الأول والأصيل للمسلم القويم أن لا يتعرض لتولي هذه الوظائف وأن لا يسألها ويطلبها.

ثانياً:

أنه قد يجوز السعي للولاية وطلبها على خلاف الأصل، وذلك في حالات أظهرها ما يلي:

الحالة الأولى:

أن يكون طالب الولاية من المقربين لولي الأمر الإمام، يشعر في نفسه أنّ بقاءه بجواره وإعانته في أمر الدولة تثبيتٌ للنظام وإبقاءٌ للمقام وتقويةٌ للحق ودعمٌ للخير وتعاونٌ على البر والصلاح والتقوى على أنه في حاجة إليه وفي صحبته له، لا أنْ يَرِدَ على نفسه مطامع الهوى، وتتلبسه أُزُر التطلع للشرف، وتَؤُزُّه مطالب تحصيل الجاه .

وهذا ما كان من حال عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح رضوان الله عليهما حين عرضا نفسهيما لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوّل ما بويع لخلافة المسلمين، فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أنا أكفيك القضاء. وقال له أبو عبيدة رضي الله عنه: أنا أكفيك المال[1]. أي بيت المال.

(١) راجع: تاريخ الرسل والملوك، للطبري، ج٢ص٢١٨، والمنتظم لابن الحوزي، ج١ص٤٣٦، والكامل في التاريخ لابن الأثير، ج١ص٣٩٦، وعصر الخلافة الراشدة أكرم ضياء العمري، ص١٦٠ دار العبيكان.

والسبب في عرضهما نفسيهما لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وطلبهما الولاية معه ؛ ثلاثة أمور:

١ــ أن كل واحد من الثلاثة رضي الله عنهم، كان يرى الآخرَين أولى بالإمامة، فلما صارت لأحدهم كان الأليق بهما عدم التخلي عنه، بل تخفيف وطأة الخلافة بمعاونته مبادرةً، فكان من باب ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢].

٢ـ أنّ خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هي أول خلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وهي في الحقيقة انفصال الملك من النبوة، فلا بدّ من التعاون والتكاتف والتراص معاً لتحمل أعباء هذا الانفصال حفاظاً على الأمّة واستبقاءً لهيبة كيان المسلمين.

٣ـ أنه لا يُظنّ في عمر ولا في أبي عبيدة رضي الله عنهما أبداً طلب دنيا أو الحرص على همّ الذات ومطالب النفس وإقامة الشهوة؛!! فعمر فاروق الأمة، وأبو عبيدة أمين الأمة، رضوان الله عليهم أجمعين، فكان طلب الإمارة في حقهما جائزاً مباحاً وربما كان مندوباً مستحباً.

الحالة الثانية:

حين لا يجد الإمام ولي الأمر من يتولاّها، وكان هو ممن تتوافر فيه أهلية الولاية لها، معروفاً بذلك، على رأي العارفين الصادقين بحاله، أو بما كان له من خبرة سابقة فيها، فجاز له أن يعرض نفسه للإمام يطلب الولاية، مقيماً نيته وقصده على إعانته، وعلى نفع المسلمين بخدمتهم، وعلى تمكين الدين بسلطانه والدعوة بهديه وسلوكه.

الحالة الثالثة:

أنْ يتكالب طلاب الدنيا على هذه الولايات وكانوا مع ذلك من غير أهلها لاعلماً ولا خبرة ولا شفقة على الناس بل مساعيهم لذواتهم ومراميهم أهواؤهم، فلا مناص ـ إنْ وجد سبيلاً ـ من سؤال الإمارة وطلب الولاية، وهذا الذي أطلقه الإمام أبو حنيفة قاعدةً فيما يُحكى عنه أنه قال: « إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فعلى أهله أن يطلبوه»[1].

وكأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى وجوب ذلك، والله أعلم .

الحالة الرابعة:

أن يتيقّن أو يغلب على ظنه أنه قد تعيّنت عليه الولاية، ووجبت عليه هو دون غيره، ظناً منه أو علماً أنه ليس من أحدٍ سواه أقدر على نفع المسلمين أو تخفيف وطأة الظلم عليهم أو تحقيق مصالحهم على وجهها، حينئذٍ قد يكون طلب الولاية في حقه واجباً أو مندوباً، وهذا الذي كان من نبي الله يوسف عليه السلام حين طلب الولاية من ملك مصر يقول له: ﴿ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٥].

---

(١) لم أجدها بهذا اللفظ مع بحث طويل عنها، ولكنها مع ذلك تشبه حِكَمَ الإمام وقواعده رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وهو صحيح في نفسه موافق لما صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال [إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة] متفق عليهخ، البخاري رقم ٥٩، والجمع بين الصحيحين برقم ٢٥١١.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها: « هذه الآية أصلٌ لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمة، إذا علم أنه لا يصلح له غيره، لأن ذلك من النصح للأمة ، وخاصة إذا لم يكن ممّن يُتهم على إيثار منفعة نفسه على مصلحة الأمة . وقد علم يوسف عليه السلام أنه أفضل الناس هنالك، لأنه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر»[1].

ومع ذلك؛ لم يولّه الملك ما طلبه من الولاية إلا بعد سنة حتى يدرس حاله ويرى ما ذكره في نفسه من الحفظ والعلم، وقد أقامه في بيته سنة كما جاء في تفسير البغوي[2]، أو سنة ونصف السنة، كما في تفسير ابن الجوزي رحمهم الله[3].

لكن يجب الانتباه إلى أنه ليس أحدٌ ممن يطلبون الولاية والإمارة كنبي الله يوسف عليه السلام، إنْ طلب الولاية فهو الأزكى بلا ريب في مصر يؤمئذ، وهو الكفيُّ، وهو الأصلح دون ارتياب أو شك، لأنه النّبي المؤيّد من ربه المعان من القوي القادر، وفي الغالب كان طلبه للولاية بأمر ووحي، فلا يقاس عليه إلا بمن كان في العلم أو غلبة الظن قريباً منه من المؤمنين الصادقين!! المصلحين العالِمين!! المتقين الحافظين!!.. والله ولي المتقين..

❑ ❑ ❑

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ، ج٧ ص ٢٨٥.

(٢) تفسير البغوي، ج٤ ص ٢٥١،

(٣) تفسير ابن الجوزي زاد المسير ، ج٣ ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

الفَصْلُ الثَّانِي

مناصب التوظيف ومثالب التكليف

الفصل الثاني

مناصب التوظيف ومثالب التكليف

لقد صوّر هرم بن حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ثقل تكليف الولاية ومثالب تولي المناصب الكبرى، صوّره لقومه حين استعمله عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، كما يروي مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال: « استُعمِل هرم بن حيان رحمه الله، فظنّ أنّ قومه سيأتونه، فأمر بنارٍ فأوقدت بينه وبين من يأتيه من القوم، فجاء قومه فسلموا عليه من بعيد، فقال: مرحباً بقومي، ادنوا، فقالوا: والله ما نستطيع أن ندنو منك، لقد حالت النار بيننا وبينك، قال: فأنتم تريدون أن تلقوني في نار أعظم منها في جهنم»[1].

هذا تصويرٌ بديع لحقيقة ما يثمره تولِّي المناصب العليا والوظائف الكبرى، أن من تتولَّى أمرهم وتتدبر شأنهم وتقوم على مصالحهم لا يهمهم كيف يكون ذلك؛ وإنما يريدون تحقيق مصالحهم وتدبير شؤونهم وتوفير ما يريدون كيفما يكون.

ولذلك؛ عليه أن يكون في أعلى مراتب اليقظة والانتباه حتى لا يلقي بنفسه في التهلكة الكبرى يوم الحساب.

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد،ج٧ص١٣٣، سير أعلام النبلاء للذهبي،ج٤ص٤٩.

وما يثمره التكليف فتنوء به كاهل المسؤول المسلم مهولٌ لا يجوز بـه صراط الحياة ولا صراط جهنم إلا من جعل الجنة عن يمينه والنـار عـن يسـاره في كـل مساره.

۞ إنَّهـــا أمانـــــة:

ويكفي المتطلعين للولايـات والمناصـب والمتـولين لهـا مـا أخـاف بـه نبـيّ الرحمة ﷺ صاحبه وخليلـه أبـاذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حـين نبهـه إلى ثقـل تكليـف الولايـة والإمارة وسوء عاقبة ذلك فقال له: (إِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا)[1].

وكونها أمانة تتطلب كمال الحفظ وتمام الرعاية والعنايـة ودوام القيـام عـلى شأنها، وأنه المسؤول عن ما يليه من واجبات ولو أتى لها مـن الأكفيـاء الخلصـاء من يعينه فيها، إنْ قصّـروا أُخذ بتقصـيرهم، وإنْ أهملـوا كـان عليـه معهـم وزر تقصيرهم، وإنْ اعتدوا كـان معهـم معتـدياً، وإنْ فـارقوا الصـواب فهـو معهـم مفارق، وإن جانفوا لإثم فهو له مجانف ومعهم له مقارف!!!..

ولثِقْل حمل الأمانـات أبـتْ السـموات والأرض أن تحملهـا وتعـرّض لهـا الإنسان لجهله وظلمه ، كما قـال تعـالى﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه بـرقم ٣٤٠٤، والحـاكم في المسـتدرك بـرقم ٧١١٩، والبيهقـي في معرفة السنن برقم ٦٠٣٠، وابن أبي شيبة في المصنف برقم ٣٣٢٠٧، والطيالسي في مسـنده برقم ٤٨١.

وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢]. وهي عامة في جميع الأمانات، أمانات الدين وأمانات الناس، وأعلاها في الرتبة والتبعة أمانة الحكم والولاية.

وهنا عرض ومعروض عليه، فالعرض الأمانة، والمعروض عليه السموات والأرض والجبال، والمناسبة بينها أن ثقل الأمانة تماثل ثقل السموات والأرض، فخافت هذه المخلوقات العظام الثقال، وتعرض لها الإنسان، فهل كان في تعرّضه للأمانة وقبوله لها لبيباً مصيباً؟ لا! وبحكم الله الخبير بمن خلق، إذ قال: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

إذنْ: من يتعرض لحمل الأمانات كان ظلوماً جهولاً، إلا من اضطر لذلك، وأُلزم بحملها، وأُمر بتكليفها.

مع أنّ مَنْ أخذها بحقها وأدَّى الذي عليه فيها ناجٍ فائز، فمع احتمال الفوز والنجاة كان التعرض لحمل الأمانات من الجهل والظلم بتقرير العليم الخبير جل جلاله. فلا يغتر طالبها ومتوليها باحتمال النجاة ولكن ليغتمّ بموارد الجهل والظلم والله المستعان.

۞ أسباب الخيانة فيها مشرعة:

ولكون هذه المناصب والولايات من أعظم الأمانات التي حملها الأمير أو الوزير أو الحاكم أو المسؤول؛ فما يقابلها هو الخيانة، فيكون عرضة لإضاعة الأمانة والخيانة فيها من كل باب ومسلك وسبيل!!..

ـ فإنْ قرّب القريب لقربه، أو بعّد البعيد لبعده؛ كان خائناً..

ـ وإنْ حابى واحداً على الآخرين لتعلق قلبي أو شعور نفسي ـ دون نظر لمصلحة الأمة؛ كان خائناً..

ـ وإنْ قَدّم في الوظيفة من لا يصلح لها دون اختبار أو اجتهاد ونظر كان خائناً..

ـ وإنْ جَعل معيار التوظيف أو التكريم أو التقديم الانتماء لجهة أو قبيلة أو حزب أو معرفة أو جوار أو صحبة أو صداقة أو عشيرة كان خائناً..

ـ وإنْ تصرّف في المال العام دون استصحاب ما يجب تحقيقه من مصالح المؤسسة أو الوزارة وأهدافها كان خائناً..

فيجد في كل باب سبباً لارتكاب الخيانات وإضاعة الأمانات، فكيف له أن يتحمل أمانتها؟! وكيف له الاحتراز عن أسباب الخيانة فيها؟!..

ويجب أن يعرف صاحب الولاية والسلطة والمنصب أنّ خيانته لأمانة المنصب خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولهذا قال تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[الأنفال: ٢٧].

ولهذا جاء الأمر الصريح الحتم من الله تعالى بأداء الأمانات دون تقليل أو تضييع أو خيانة فيها فقال سبحانه ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [النساء: ٥٨].

ولذلك جاءت تنبيهات وتحذيرات الرؤوف الرحيم الحريص على نجاة أتباعه من المؤمنين الخيّرين ﷺ، فقال منبهاً ومحذراً أصحاب هذه الوظائف والمناصب : «مَنْ تَوَلَّى مِنْ أُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَوْلَى بِذَلِكَ وَأَعْلَمُ مِنْهُ بِكِتَابِ الله وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَجَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ»(١).

وقال لهم محذراً إياهم ﷺ : « من استعمل رجلاً من عصابة وفي تلك العصابة من هو أرضى لله منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين »(٢).

ولما شُكِي للمهدي أمير المؤمنين ' والٍ من ولاته وكتب صاحب البريد وصلحاء البلدة بما ذكره القوم فيه، قال: حدثني أبي عن أبيه عن جده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « من ولَّى والياً فبلغه عنه ظلم لرعيته فلم يعزله، فقد خان الله ورسوله»(٣).

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين بعث يزيداً إلى الشام : (يا يزيد! إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكبر ما أخاف عليك، فإن رسول الله ﷺ قال: «من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم ومن أعطى أحداً حمى الله

(١)أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم ١١٠٥٣. والبيهقي في السنن الكبرى ج١٠ ص ١١،عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم ٧١٢٣، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه أبو نعيم في فضيلة العادلين، برقم ٨ ص ٩.

فقد انتهك في حمى الله شيئاً بغير حقه فعليه لعنة الله أو قال تبرأت منه ذمة الله ﷻ)[1].

وروي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (من ولي من أمر المسلمين شيئًا فولَّى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمسلمين)[2].

ولهذا؛ لمَّا قدم صهرٌ لعمر رضي الله عنه فطلب أن يعطيه عمر من بيت المال ، انتهره عمر وقال: أردت أن ألقى الله ملكاً خائناً؟ فلما كان بعد ذلك أعطاه من صلب ماله عشرة آلاف درهم[3].

فأبواب الخيانة مشرعة، وأسبابها مترعة، لو تحاشى بعضها وقع في بعضها فأضاع الأمانة وأهلك نفسه والأمة، والله المستعان!!.

❁ نعمت المرضعة وبئست الفاطمة:

هذه المناصب والوظائف والولايات تدرّ عليك بعض الدنيا لترضع وترتع، ثم لا يلبث أن ييبس الضرع، ويجف النبع، ويعسر عليه ويشقّ فطام النفس والذات، فلا يجد لنفسه إلا التبعة وما لم ينتبه له مما وقع منه من المآثم

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند برقم ٢١ ج١ ص ٢٤ مسند أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) السياسة الشرعية لابن تيمية، ص ٧.

(٣) سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، د. علي الصلابي ص ١٢٤، نقلاً عن: تاريخ الإسلام للذهبي، ص ٢٧١.

والمظالم التي تكاثرت من آحاد وصغائر، فانقلب حال غده الآتي القريب من العز إلى الذل، ومن الكرامة إلى المهانة!!..

هذا الذي نبّه إليه رسول الرحمة ونبي المرحمة ﷺ في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يقول: «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة»(١).

قال الداودي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نِعْمَ المرضعة: أي في الدنيا، وبئست الفاطمة: أي بعد الموت؛ لأنه يصير إلى المحاسبة على ذلك، فهو كالذي يفطم قبل أن يستغني فيكون في ذلك هلاكه»(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال غيره: « نعم المرضعة لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة وتحصيل اللذات الحسية والوهمية حال حصولها، وبئست الفاطمة عند الانفصال عنها بموت أو غيره وما يترتب عليها من التبعات في الآخرة»اهـ(٣).

ولهذا: نصح النبي ﷺ صحابته رضوان الله عليهم ومن بعدهم أمته يعرّفهم بعواقب الإمارة يقول: « إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة » قالوا: وما هي؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٧١٤٨، وأحمد في المسند برقم ٩٧٧٤، وابن أبي شيبة في المصنف برقم ٣٣٢٠٩، والنسائي في السنن الصغرى برقم ٤١٤٠.

(٢) فتح الباري ج١٣ ص ١٣٥، وفتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار، الحسن بن أحمد الرباعي الصنعاني، ج٤ ص ٢٠٥١.

(٣) فتح الباري لابن حجر نفس الموضع.

قال: « أولها ملامة ، وثانيها ندامة ، وثالثها عذاب يوم القيامة ، إلا من عدل »[1].

۞ الغـرور المفضي إلى الشرور:

تنبّه لذلك كثير من العقلاء والفضلاء والعلماء، وغفل عنها كثير من طلاب الإمارة والوزارة، وأحبابها، المتطلعين لتوليها..

وصفها النبي ﷺ بئست الفاطمـة، ووصـفها الطيبـي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنهـا داهيـة دهياء[2]، وأصفها أنا بأنها: الغرور المفضي إلى الـشرور، وكلها أوصاف صحيحة، وكلها أوصافٌ منفّرة.

نَعَمْ! هذه المناصب والوظائف تأويلهـا بحقيقتهـا أنهـا غَـرور تفضـي إلى الشـرور، لأنها تعطيك دنيا منعمة وحياة مخضرة ونعماً ظاهرة، غير أنها لا تخـرج عن كونها دنيا زائلة ونعماء فانية تعقبها ملامات وندامات وحسـرات وعقوبات، فهل يصح لعاقل أن يحرص عليها ويعـادي ويـوالي مـن أجلهـا؟!! إذنْ فاسـمع لنصيحة القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « لا ينبغـي لعاقـل أن يفـرح بلـذة يعقبهـا حسرات»[3].

(١) أخرجه البزار في مسنده برقم ٢٧٥٦، والطبراني في المعجم الأوسط برقم ٦٩٣٧، وفي مسند الشاميين برقم ١١٦٤، واللفظ للطبراني في الأوسط، وصحح إسناده الحافظ ابـن حجـر في فتح الباري ج١٣ ص ١٣٤.

(٢) فتح الباري لابن حجر، ج١٣ ص ١٣٥.

(٣) فتح الباري ج١٣ ص ١٣٥.

هذه المناصب والوظائف تغرّ جماهير الناس وتغرّ أصحابها، لما فيها من المغانم الظاهرة والمظاهر الفاتنة التي تلوح لمتوليها بل ويناله منها، فيتوهمها خيراً محضاً لا يبير ونعيماً مقيماً لا يبيد، وهو لا ينظر في عواقبها بحيث تخفى مضارّه في بادىء الرأي، ولا يظنّ أنها من الشيطان، وبهذا تكون قد غرّته الإمارة أو الوزارة وغرّرت به.

نعم! إنها تجمع له كثيراً من الخير الظاهر، فبها يأتيه الجاه، وبها يَنال الشرف، وبها يجد الشهرة، وبها يكسب المال، وكل ذلك مكاسب سعادة ومناصب سيادة!.ولكن ماذا بعد هذا؟!.. غمٌّ وهمٌّ وتحزينٌ وسوءُ عاقبة وشرُّ حساب، أليست في الحقيقة هي الغرور المفضي للشرور؟!.

بل تغريرها يطال حتى المعاونين والأصحاب والمقربين والمجالسين، ولهذا جاءت نصائح العقلاء.

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عيون الأخبار: « مثل صاحب السلطان مثل راكب الأسد يهيب به الناس وهو لمركبه أهيب ».

وجاءت نصيحة بعضهم تقول لي ولك: «إن وجدت عن السلطان وصحبته غنًى فاستغن به فإنه من يخدم السلطان بحقّه يَخْلُ بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة، ومن يخدمه بغير حقه يحتملْ الفضيحة في الدنيا والوزر في الآخرة » .

ولقد قالوا: « صحبة السلطان على ما فيهم من العز والثروة عظيمة الخطار،

وإنما تشبّه بالجبل الوعر فيه الثمار الطيبة والسباع العادية، فالارتقاء إليه شديد والمقام فيه أشدّ، وليس يتكافأ خير السلطان وشره لأنّ خير السلطان لا يعدو مزيد الحال، وشر السلطان قد يزيل الحال ويتلف النفوس التي لها طلب المزيد، ولا خير في الشيء الذي سلامته مال وجاه وفي نكبته الجائحة والتلف »[1].

ويكفيني وإياك ما قاله عبيد بن عمير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحبة أهل السلطة والحكم: «ما ازداد رجل من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلا كثر حسابه»[2].

وفوق ذلك كله فقد يكون في الغالب مُتَّخَذاً سترةً ووقايةً للسلطان من الناس، وربما يتخذه السلطان الأكبر والإمام الأعظم سترة له من النار، إذ يُلقِي عليه ما عليه هو من مسؤوليات وواجبات فيما يليه تجاه رعيته لينجو هو من تبعاتها .

ومن ذلك ما قاله معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لفضالة بن عبيد حين ولاه القضاء بعد أبي الدرداء رضوان الله عليهم، وذلك أن أبا الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يلي القضاء بدمشق، فلما حضرته الوفاة، قال له معاوية: من ترى لهذا الأمر ؟ قال: فضالة بن عبيد. فلما مات أرسل معاوية إلى فضالة فولاه القضاء، فقال له: "أما إني لم أحبك بها، ولكني استترت بك من النار"[3] .

(١) راجع كل ذلك في عيون الأخبار لابن قتيبة، ج١ ص ٨.

(٢) سراج الملوك، للطرطوشي، ص ٤١.

(٣) تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ج١ ص ٩.

۞ مَسْكُ القـُرون لحَلوب الرَّعيَّة:

وهذا الذي نبَّه إليه عمرو بن عبيدٍ الخليفة المنصورَ ـ رحمهم الله تعالى ـ لَـمَّا دخل عليه فقرأ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾... حتى بلغ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر:١ـ ١٤]، قال: «لمن فعل مثل فعالهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين فإن بأبوابك ناراً تأجَّج، لا يعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول اللهﷺ، وأنت مسؤول عما اجترحوا وليسوا مسؤولين عما اجترحتَ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك! أما والله لو علم عمالك أنه لا يرضيك منهم إلا العدل؛ لتقرب به إليك من لا يريده». فقال له سليمان بن مجالد: اسكت! فقد غممت أمير المؤمنين. فقال عمرو رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويحك يا ابن مجالد! أما كفاك أنك خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتى أردت أن تحول بينه وبين من ينصحه؟ اتق الله يا أمير المؤمنين! فإن هؤلاء قد اتخذوك سلماً إلى شهواتهم، فأنت **كالماسك بالقرون وغيرك يحلب**، وإن هؤلاء لن يغنوا عنك من الله شيئاً»![1].

وصدق والله! فهو الماسك بالقرون وغيره يحلب ، خاصة أعوانُه وخُوانُه.

حتى لرعيته وشعبه ومواطنيه!! لماذا؟:

۞ لأنّه واجبٌ عليه أن يعبّد لهم الطرق ليسيروا دون عناء وليريحوا دوابهم ومراكبهم..

---

(١) سراج الملوك، لأبي بكر الطرطوشي، ص ٢٤.

۞ ولأنه واجبٌ عليه أن يؤمن حياتهم لينعموا بالأمن لأنفسهم وأولادهم وأموالهم..

۞ ولأنه واجبٌ عليه أن يهيئ لهم سبل التعلّم والدراسة فيتعلموا هم وأبناؤهم..

۞ ولأنه واجبٌ عليه أن يحارب عدوهم ويرد كيده ليكونوا في أمان من أعدائهم..

۞ ولأنه واجبٌ عليه أن يوفّر لهم أسباب الارتزاق، ومدخلات الإنتاج، ويضارب لهم في الأموال، ويسكك لهم النقود، ويعدّ لهم النظم والقوانين، ويعيّن لهم القضاة، وغير ذلك، ليحصلوا على حقوقهم، وينالوا حظوظهم، وينعموا بالعدل، وتُفضّ نزاعاتهم، وتُفصل خصوماتهم.. وهكذا.. فهو في واقع الأمر ممسكٌ بالقرون وغيره يحلب، يكون ممسكاً بقرون الحياة ليحلب الرعية الأمن والهناء والسعادة والرخاء والعدل والعيش الكريم..

هو ممسك للقرون ولو شرب بعض ما حُلب والله المستعان !!.

۞ شواغل تنوء بالكواهل[1]:

فالواجبات أكثر من الأوقات، لا سيما في هذا الزمان الذي تقاصر فيه

(١) الكواهل جمع كاهل، وهو مقدّم أعلى الظهر مما يلي العنق ، وهو أشدّ جسم الإنسان وأقواه وما يعتمد عليه في حمل كل ثقيل.والحديث: (تميمٌ كاهل مضر وعليها المحمل) راجع: لسان العرب ، ج١١ ص ٦٠١ - ٦٠٣.

الوقت ومحقت بركته، وتعقدت أمور الناس، وتضاعفت مشكلات العصر، وتزاحمت الأعمال، وتراكمت المهام، وتشابكت الواجبات تتطلب لقاءات واجتماعات ولجان ومجالس !! فلا سبيل لإنجاز أو أداء إلا بمواصلة الليل بالنهار، وهجران البيت والدار، وبالحيلولة دون القيلولة، وإلاّ! لأُهدرت الواجبات، وضُيعت الأمانات، وأُهملت الحقوق، وضاع الشعب والرعية..

همٌّ يبقيك في تفكير وتدبير نهارك كله، وغمٌّ يسهدك ويؤرقك ليلك كله، ولهذا:

نبّه صديق الأمة خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ حين استخلفه فقال له: « اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة..»[1].

وبهذا ألزم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه منذ أن تولَّى الخلافة من بعده حتى لقي ربه.

كَتَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضوان الله عليهما يَشْتَكِي إِلَيْهِ مَا يَلْقَى مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، فَوَقَّعَ عُمَرُ فِي قِصَّتِهِ: «كُنْ لِرَعِيَّتِكَ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَكَ أَمِيرُكَ ، وَرُفِعَ إِلَيَّ عَنْكَ أَنَّكَ تَتَّكِئُ فِي مَجْلِسِكَ، فَإِذَا جَلَسْتَ؛ فَكُنْ كَسَائِرِ النَّاسِ وَلا تَتَّكِئْ ». فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌو: أَفْعَلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبَلَغَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ، ج١ ص ١٠٩ - ١١٠. دار الفكر.

أَنَّكَ لا تَنَامُ بِاللَّيْلِ وَلا بِالنَّهَارِ؛ إِلا مُغَلَّبًا ! فَقَالَ عمر رضي الله عنه: «يَا عَمْرُو! إِذَا نِمْتُ بِالنَّهَارِ ضَيَّعْتُ رَعِيَّتِي، وَإِذَا نِمْتُ بِاللَّيْلِ ضَيَّعْتُ أَمْرَ رَبِّي»(١).

فما عرف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عهده أنه نام بليل أو نهار فاسترخى أو استراح، حتى إنه إنْ أراد قسطاً من ذلك؛ صاحت به الهموم ونبهته الغموم فيطير النوم من الجفون، ما كان ينام إلا قهراً، ولهذا كان يوجد تحت شجرة بين الأشواك أو الأوراق نائماً أو فوق تراب المسجد راقداً، أو على الرمال الحارة يرمي بجسده المتعب المنهوك المثقل بهموم الرعية، وإنْ جاءته الوفود أو تفقدته الرسل والسفراء.

ففي المشهور من حاله رضوان الله عليه: أنّ قيصر أو كسرى، أرسل رسولاً إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لينظر أحواله ويشاهد فعاله، فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال: أين ملككم؟ قالوا: ليس لنا ملك، بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة. فخرج الرسول في طلبه فوجده نائماً في الشمس على الأرض فوق الرمل الحار وقد وضع درته كالوسادة تحت رأسه والعرق يسقط منه إلى أن بل الأرض، فلما رآه على هذه الحالة وقع الخشوع في قلبه وقال: «رجل تكون جميع ملوك الأرض لا يقر لهم قرار من هيبته، وتكون هذه حاله، ولكنك يا عمر عدلت فأمنت فنمت وملكنا يجور، لا جرم أنه لا يزال ساهراً خائفاً. أشهد أن دينكم لدين الحق، ولولا أني أتيت رسولاً لأسلمت، ولكن سأعود بعد هذا وأسلم».. وفي رواية : في المسجد، وفي رواية في ظل حائط، وفي رواية تحت

(١) أخرجه ، ابن عساكر في تاريخ دمشق ، ج٤٤ ص ٢٧٣، وأبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم، ج٨ ص ٣١٤، برقم ٣٥٨٦.

شجرة[1].

فقال حافظ إبراهيم : شاعر النيل مصوّراً هذا المشهد البديع بقصيد بديع:

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً
بين الرعيــة عطـــــلاً و هو راعيهـا
وعهـده بملــوك الفـــرس أنّ لهـــا
سوراً من الجنـــد والأحراس يحميها
رآه مستغـــــرقــاً فـي نومــه فــرأى
فيــه الجلالـــــة فـي أسمــى معانيها
فوق الثرى تحت ظلّ الدَّوح مشتملاً
ببُـــــــردة كاد طـــول العهـد يبليهـا
فهـان فـي عينـــه مـا كان يكبـــره
من الأكاسـر والدنيـــــا بأيديهـــا
وقال قولـة حـقٍّ أصبحـت مثـــلاً
وأصبـح الجيـل بعـد الجيل يرويهـا

(١) انظر: التبر المسبوك في نصيحة الملوك، للإمام الغزالي، ص ٤، سراج الملوك، للطرطوشي، ص ٤٢، بدائع السلك في طبائع الملل، لابن الأزرق، ص ٤٢، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، لأبي يعلي القاضي، ص ٨٤، نصاب الاحتساب ، عمر بن أحمد السنامي الحنفي ص ٣٤١.

أَمِنْت لَمَّا أقمْت العدل بينهمو

فنمت نوم قرير العين هانيها[1].

كان هذا حال الراشدين من خلفاء الأمة وولاتها، رحمة الله ورضوانه عليهم أجميعين.

عن الحسن بن علي رضي الله عنهم قال: « رأيت عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد جمع الحصى في مسجد رسول الله ﷺ عند رأسه، وقد وضع إحدى جانبي ردائه عليه، وهو يومئذ أمير المؤمنين، ما عنده أحد من الناس، ودرته بين يديه»[2].

فما أثقل هذا التكليف الذي يقض المضاجع ويطير النوم مهما هجم، ويثقل الكواهل بالواجبات التي تنوء بالعصبة أولي القوة ناهيك عن كاهل فردٍ، غير أنه هو المسؤول، إنْ أضاعها ضاع، وإنْ أهملها همل، وإنْ قصّر فيها قَسطُر عن مقام المنصب، وهو مع كل ذلك لن يقدر على أدائها كما يجب، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

۞ أخطاءٌ وخطيئاتٌ:

من مثالب التكليف ومسالب التوظيف في هذه المناصب العليا من الولايات والوزارات والإدارات؛ إيقاع المتولّي لها في جملة أخطاء وخطيئات، ولا

(١) موسوعة الشعر الإسلامي، ص ٦٧٢.

(٢) سراج الملوك، للطرطوشي، ص ٤٢.

شكّ أنها لا تقع منهم جميعاً، وليس كل مسؤول مَعنيٌّاً مقصودٌاً بذلك، ولكنْ جمهورهم وغالبهم، ولربما وقع المزكَّى النقيّ والخيّر التقي في شيء منها، أو أصابته منها صُبابة أو حُبابة[1]، وربما أذلته إليها موارد الاضطرار ومن غير اختيار، فما أخطر هذا التوظيف وما أضر هذا التكليف وما أثقل حمله.

ولو عددت ما يوقعه هذا التكليف والتوظيف من الأخطاء والخطيئات؛ مَا وعتها هذه الرسالة الوجيزة، فمنها على سبيل التمثيل: العلو والتعالي، فقدان الورع، حب التعظيم، حب الدنيا والتنافس عليها، وحب الرياسة والشرف، حب الثناء والمدح، حب الموافقة والتملّق له، استعباد العباد، الكبر وغمط الحق، الرضا عن الذات، العزة بالإثم والإعراض عن الحق، استطالة الخصومة، التساهل في الدين، تلبيس إبليس، استفشاء مواطن الشُبَه، قسوة القلب، التشبث بالمنصب والعرش، التوسع في المباحات، الطغيان، وغير ذلك من حالقات الدّين ومضعفات التديّن.

وأنبّه إلى بعضها في إشارات موجزات بإذن الله ما استطعت:

---

(١) الصبابة البقية اليسيرة القليلة التي تبقى في قاع الإناء بعد الشرب، ومن الآثار المشهورة في ذلك: (إن الدنيا قد آذنت بصرم، وولت حذاء، فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء) . أما الحبابة فهي الفقاقيع التي تطفو فوق الماء في القوارير ونحوها، وكلاهما كناية عن القلة والخسة، راجع: غريب الحديث، لابن سلام، ج٤ ص ١٦٧، والفائق في غريب الحديث ج١ ص ٢٤٨، المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيدة، ص ٣٩٧، والمخصص لابن سيدة أيضاً، ج٢ ص ٤٥٤، لسان العرب ج١ ص ٢٩٣.

١ـ العُلوّ والتَّعالي:

مهما كان ممتلئاً فضلاً وصلاحاً؛ تحمله نفسه على العلو والتعالي، ويكفي الحرص على توقي هذه المثلبة [التعالي والتكبر]؛ ما كان من فاروق الأمة ثالث خير أمة أخرجت للناس بعد رسول الأمة ﷺ ثم صديق الأمة أبي بكر رضوان الله عليهما، فإنه لما وجد هذه الخطيئة قد ركبته أو ركبها أو تلبسته أو لبسها، سارع إلى ترغيم شيطانه وكسر نفسه.

صعد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المنبر فجلس، ونودي الصلاة جامعة، فما زالوا حتى امتلأ المسجد، فقام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: (أحمد الله إليكم، إني كنت آجر نفسي ، ثم أصبحت يضرب الناس تحيتي، ليس فوقي أحد، ونزل)، فقال له ابنه عبد الله: يا أمير المؤمنين! ما حملك على ما قلت؟ قال: (إنْ أباك أعجبته نفسه، فأحبَّ أن يضعها) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [١].

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على عاتقه قربة ماء فقلت: يا أمير المؤمنين! لا ينبغي لك هذا، فقال: (لما أتاني الوفود سامعين مطيعين، دخلت نفسي نخوة [أي عُجْب] فأردت أن أكسرها)[٢].

وفعل مثل ذلك أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو والي البحرين، فرؤي يحمل حزمة من الحطب على ظهره ويقول: (طرِّقوا الأمير) [٣].أي أفسحوا له الطريق.

---

(١) مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي، ص ١٥٣.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم، ج٢ ص ٣٤٣.

(٣) المدارج نفس الموضع.

وقد يغويه لذلك الشيطان بمدخل خطير هو: مراعاة هيبة الدولة، والتفرّع في ذلك إلى هيبة الولاية، وهيبة السلطة، وهيبة الإدارة، وهيبة القسم، إلى آخر تلك السلسلة التي لا تنتهي.

ولهذا يجب أن يتعهد ذاته بترغيم نفسه وتعلّم التواضع وصناعته ولو تصنّعاً حتى يصنعه، وإلا كان مطروداً ممن قال الله فيهم : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[القصص : ٨٣].

وهذا التعالي والتكبر من أخطر مثالب التكليف ومصائب التوظيف، فكم ممن تعالى على الرعية وتميّز عنهم، يتخذ الأُبَّهة في مجلسه ومسكنه وملبسه ومركبه ومسيره يتميّز بذلك عن الرعية والعامة؛ ثم لا يلبث أن يُرى في الوضاعة والذلة.

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المدارج أن رجلاً رؤي في الطواف، بين يديه شاكرية [الجنود والحراس ورجال الأمن] يمنعون الناس لأجله عن الطواف، ثم رؤي بعد ذلك بمدة على جسر بغداد يسأل الناس . فتُعُجِّب منه ، فقال : «إني تكبّرت في موضع يتواضع الناس فيه، فابتلاني الله بالذل في موضع يترفع الناس فيه» (١).

لما نظر مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى المهلب بن أبي صفرة يجرّ أذياله ويتبختر في أثواب خيلائه، ناداه أن ارفع من ثيابك. فقال له المهلب: أوما تعرفني؟ قال له

(١) مدارج السالكين، ج٢ ص ٣٤٤.

مالك: "بلى إني أعرفك، أَوَّلُكَ نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة"[1].

ولا ينسى المسؤول الكبير حال قارون حين خرج في زينته علواً في الأرض وفساداً خُسِف به وبداره الأرض ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٨١].

ومع ذلك ينبغي للولاة والمسؤولين أن يتعاملوا مع الناس بفئاتهم باستخدام فقه التواضع، وهو الذي وصف به ابن عباس رضي الله عنهما خليفة المسلمين أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان: «يتواضع حيث لا توهن نصرته ، ويعلو حين لا تخاف سطوته »[2]. ودونما توسّع أو تجاوز.

٢ـ فُقْدان الورع:

وربما يأتي أول ما يُولَّى بحرص شديد على الحقوق والأموال، ثم لا يبقى طويلاً إلا ويجد في نفسه التساهل في الحقوق، والتهاون في التعامل مع المال، فلا يبقى له من الورع حتى تذكّره، بل ربما لو ذُكِّر أو نصح به لَتَضَايق واغتمّ.

والأسباب المذيبة لصخور الورع في النفس كثيرة خطيرة، ترغيب العاملين.. تسهيل المهام..ترويض المعاندين.. تحفيز المعاونين.. ويزيد شيئاً فشيئاً

(١) سراج الملوك للطرطوشي ص ٢٣.

(٢) بهجة المَجالس وأنس المُجالس، لابن عبد البر ج١ ص ١٠٩.

حتى يفقد الورع بالكلية.

ويا ويل من يتساهل في الخوض في مال الأمة وحقوق المسلمين!! ويا ويحه وهلاكه! أوَ لا يعلم أنّه إنما يتخوّض في مال الله؟!، ففي صحيح البخاري عن خولة الأنصارية رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: (إن رجالاً يتخوّضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة)[1].. وفي مسند الإمام أحمد وغيره يقول النبي ﷺ: «رُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِى مَالِ اللهِ وَمَالِ رَسُولِهِ لَهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[2].

وروى أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « من أعطى أحداً حمى الله فقد انتهك في حمى الله شيئاً بغير حقه؛ فعليه لعنة الله، أو قال: تبرأت منه ذمة الله ﷻ »[3].

ومن فقدان الورع في التصرف في المال العام عند المسؤولين اليوم؛ التوسّع في استعمال الأدوات والوسائل، حتى الورق والقلم والأجهزة ناهيك عن المراكب، والنثريات، والمخصصات وغيرها..

ولا بد أن يعرف كل مسؤول أو موظّف أو وزير أو أمير أو حاكم أو والٍ أو رئيس أو ملك، أنّ هداياهم غلولٌ، وقد قال النبي ﷺ كما في حديث جابر بن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٢٨٨٦.

(٢) مسند أحمد برقم ٢٥٨٠٨، وابن أبي شيبة في المصنف برقم ٣٥٥٢٣، وعبد الرزاق في المصنف برقم ٦٩٦٢، والحميدي في مسنده برقم ٣٧٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده برقم ٢١ ج١ ص ٢٤، مسند أبي بكر رضي الله عنه.

عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (الهدايا للأمراء غلول) وفي مسند الإمام أحمد: (هدايا العمال غلول)[1].

وأتى رجلٌ لعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بتفاحاتٍ فأبى أن يقبلها ، فقيل له : قد كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية، فقال عمر بن العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « هو لرسول الله ﷺ هدية، وهو لنا رشوةٌ، ولا حاجة لي به»[2].

ولا بد لكل واحد منهم أن ينتبه لحكم رسول الله ﷺ على كل عامل يتساهل في غير ما له في عقد عمله قال ﷺ: «مَنْ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ»[3]، ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران : ١٦١]. ولا يخفى على الله منه شيء!! نسأله تعالى العفو والسلامة.

٣ـ حبّ الدّنيا والتنافس عليها:

وهذه من مثالب ومصائب المناصب العليا، فإنّها تسوق من يتولاها يوماً بعد يوم شيئاً فشيئاً حتى تجعله يتعلّق بأهداب الدنيا يستحبها على الآخرة، ينافس فيها عليها، وقلّما ينجو أحدٌ منهم من ذلك!! ..

وهذا من المُشاهَد في أحوال كثيرٍ من الولاة والمسؤولين، إذ تجده يسارع

(١) مصنف عبد الرزاق برقم ١٤٦٦٥. ومسند أحمد برقم ٢٢٤٩٥،

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص ١٣٣.

(٣) أخرجه أبو داود برقم ٢٥٥٤، والبزار في مسنده برقم ٤٤٢٧، والطبري في تهذيب الآثار برقم ١٦٠٦، وابن خزيمة في صحيحه برقم ٢٣٦٩، الطبراني في مسند الشاميين برقم ١٢٥٠، الحاكم في المستدرك برقم ١٤٢٤، والبيهقي في السنن الكبرى ج٦ ص ٣٥٥.

بعد حين في استبدال قديم الآثاث بجديدٍ، والبسيط بالفاخر، والقليل بالكثير، ويملأ مكتبه بالمفارش والنمارق، ويزينه بالسُتُر والأرائك، في بذخٍ لا يقرّه شرعٌ ولا وضعٌ ، وحال البلاد في ضرورة، وأحوال الناس في ضنك وحاجة، ثم لا يلبث أن ينافس عليها يفاخر بملبسه ومركبه ومكتبه وبيته أقرانه، كلما ازداد أحدهم عليه بزينة؛ سابَقَهُ إلى ما هو أزين، وإذا سَبَقَهُ أحدهم إلى موديل سابَقَه إلى ما بعده، بل تجدهم تشاجروا فيمن يقرب أكثر من مجلس الملك أو الرئيس أو الأمير!! وكل ذلك من شواهد الأحوال لمستحبي الحياة الدنيا، وفتنة المنصب في رميه على كثبان الدنيا حتى ينزلق منها هاوياً إلى سخط الله وسخط الرعية، ثم لا يجد له على الله به تبيعاً.

وفي الحديث: (مَنْ أُشْرِبَ قَلْبُهُ حُبَّ الدُّنْيَا الْتَاطَ مِنْهَا بِثَلاثٍ: شَقَاءٍ لا يَنْفَدُ عَنَاهُ، وَحِرْصٍ لا يَبْلُغُ غِنَاهُ، وَأَمَلٍ لا يَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ)[1].

وكان نبي الله عيسى عليه السلام يقول: (حبّ الدنيا أصل كل خطيئة ، والمال فيه داء كبير . قالوا: وما داؤه ؟، قال: لا يسلم من الفخر ولا الخيلاء . قالوا: فإن سلم؟ قال: يشغله إصلاحه عن ذكر الله عز وجل)[2].

فلا بدّ من كل ذلك إذا تعلّق القلب بحبّ الدنيا وتنافسها الكبار والصغار والرعاة والرعية..

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم ١٠١٧٥ .والقضاعي في مسند الشهاب، برقم ٥١٣.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي، برقم ٩٩٧٤.

وتعلّق المسؤولين بالدنيا وتنافسهم عليها خطير على الأمة من جهات، قد لا ينتبه إليها كثيرٌ منّا:

أُولاها:

أنّ الناس على دين ملوكهم وأحوالهم، كيفما كانوا يكونون، وكيفما صنعوا يصنعون، وكيفما اهتموا يهتمون، ولا شكّ أن تنافسَ الناس في حطامات الدنيا يكون مفسدة ومضيعة لهم بذلك، وليسوا لذلك خُلقوا ولا بذلك أُمروا!!..

ومما اشتهر في هذا الباب: أنّ الناس في زمن الحجاج بن يوسف، كانوا إذا تلاقوا يتساءلون: من قُتِل البارحة؟ من صُلب؟ من جُلد؟ ... في أمثال ذلك.

وكانوا في زمن الوليد بن عبد الملك يتساءلون: عن البنيان والمصانع والدور وشق الأنهار وغرس الأشجار..

وكانوا في زمن سليمان بن عبد الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتحدثون عن الأطعمة الطيبة، والملابس الرفيعة، ويتوسعون في الأنكحة واتخاذ السراري، ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك..

وكانوا في زمن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتساءلون: كم تحفظ من القرآن؟ كم وردك كل ليلة؟ متى تختم؟ كم تصوم من الشهر؟ في أمثال ذلك[1]..

فالناس ـ غالباً ـ على دين ملوكهم وحال رعاتهم.

(١) راجع: الزهرات المنثورة لابن السماك الغرناطي، ج٢ ص ٨.

ثانيها:

أنّ التنافس على الدنيا هو مُهلك الأمم، لا سيما أمم التوحيد، وفي الصحيح لما جاء أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمالٍ من البحرين فتعرّض له الناس عقب صلاة الفجر قال لهم رسول الله ﷺ: (فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ؛ وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ)[1].

ثالثها:

أنّ التعلق بالدنيا والتنافس فيها يفضي إلى إضعاف الأمة ودنوها وقلتها، وإلى استعلاء الأعداء وتمكنها، لأنه يقذف الوهن في قلوب المسؤولين عن مصير أمتهم وبلادهم، فربما أطاعوهم في ما يضرّ الأمة، وربما وافقوهم على ما يضعفها، وربما عاونوهم على ما يوقعها في المذلّة والمهانة، جهلاً أو غفلة لأن القلب أصابه الوهن، فلا وعي ولا ضمير ولا همّ بقضية، وربما يفعل بعضهم ذلك بيعاً لشعوبهم، لشهوة أو نزوة أو لاستبقاء منصب أو لاستزادة مرغب أو مركب بل وربما ملعب، ولا حول ولا قوة إلا بالله..

ففي الحديث: « يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا». فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ ﷺ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،

(١) أخرجه الشيخان، البخاري برقم ٢٩٢٤، ٣٧١٢، ومسلم برقم ٥٢٦١، والترمذي برقم ٢٣٨٦، وابن ماجة برقم ٣٩٨٧، وغيرهم.

وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ الله مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ الله فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ». فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله ! وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْت»[1].

فلننتبه!!! فربما الذي نحن فيه من الهوان والذلّة والضعف وتمكُّن غيرنا منّا، وتسلّط الأعداء علينا، وضعف قوتنا، وقلّة حيلتنا وهواننا على الناس؛ من حبّ بعض رعاة المسلمين وأمرائهم للدنيا وتنافسهم فيها..

ولقد كان رُعاة الأمة من سلفنا الصالح رضوان الله عليهم يشترطون على من يولونهم أمور المسلمين، التخفّف والتقلّل من الدنيا والتزهّد فيها، فقد كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا بعث عاملاً يشترط عليه أربعاً: «ألّا يركب البراذين، ولا يلبس الرقيق، ولا يأكل النقي، ولا يتخذ بوّاباً». ومرّ ببناء يُبنَى بحجارة وجصٍّ فقال: لمن هذا؟ فذكروا عاملاً له على البحرين فقال: « أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقهم» وشاطره ماله. وكان يقول: « لي على كل خائن أمينان: الماء والطين »[2].

وكتب إلى عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ واليه على مصر: «كُنْ لِرَعِيَّتِكَ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَكَ أَمِيرُكَ، وَرُفِعَ إِلَيَّ عَنْكَ أَنَّكَ تَتَّكِئُ فِي مَجْلِسِكَ، فَإِذَا جَلَسْتَ؛

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم ٣٧٤٥، والطبراني في مسند الشاميين، برقم ٥٨٥، ٦٠٠ ، والزهو لابن أبي عاصم برقم ٢٦٨..

(٢) عيون الأخبار، لابن قتيبة، ج١ص ٢٢.

فَكُنْ كَسَائِرِ النَّاسِ وَلا تَتَّكِئْ ». فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌو رضي الله عنه: (أَفْعَلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ)[1].

٤ـ تلبيس إبليس على المسؤولين:

ومن مثالب الوظيفة العامة أنها تفتح على النفس والقلب أبواب الشيطان للإغواء والاحتناك ، ويمكّن لإبليس من التضليل والتلبيس ، فلا ينجو من الولاة والسلاطين ومن الرؤوس والمسؤولين إلا من رحم الله، وقد لبّس على أكثرهم وأغلبهم إبليسُ من وجوه كثيرة، نذكر أمهاتها:

الوجه الأول: أنه يريهم أن الله عز وجل يحبهم، ولولا ذلك ما ولاّهم سلطانه ولا جعلهم نواباً عنه في عباده.

ونَسِيَ هؤلاء أنّ الله قد أعطى الملك والسلطة والرياسة والجاه خلقاً ممن يبغضه، وأنه قد بسط الدنيا لكثيرٍ ممن لا ينظر إليه، وربما سلَّط جماعةً من أولئك على الأولياء والصالحين فقتلوهم وقهروهم، فكان ما أعطاهم وبالاً عليهم لا خيراً لهم، ولعله كان ممن قال الله فيهم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً**﴾[آل عمران: ١٧٨] .

والوجه الثاني: أنه يقول لهم: الولاية تفتقر إلى هيبة، فالسلطان يقول: لا بدّ من هيبة الدولة، والوالي المسؤول يقول: لا بدّ من هيبة المؤسسة، فيقعون في أخطاء وخطيئات مهلكة لتحقيق تلك الهيبة، منها ركوب متون الزلل وظنون

(١) سبق تخريجه في فقرة (شواغل تنوء بالكواهل).

الجهل، فيتكبرون عن طلب العلم وعن مجالسة العلماء، ويبطلون النصّ بالرأي، والنقل بمغالطات العقل، فيتلفون الدين. والمعلوم أنّ الطبع يسرق من خصال المخالطين، فإذا خالطوا مؤثري الدنيا الجُهَّال بالشرع؛ سرق الطبع من خصالهم مع ما عنده منها، ولا يرى ما يقاومها ولا ما يزجره عنها، فتسببوا بذلك في المهلكة.

والوجه الثالث: أنه يخوِّفهم الأعداء ويأمرهم بتشديد الحجاب، فلا يصل إليهم أهل المظالم بأنفسهم، فيجعل لأولئك مسؤولاً يتوانى في رفع المظالم، وقد روى أبو مريم الأسدي عن النبي ﷺ قال: (من ولاه الله شيئا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله عز وجل دون حاجته وخلته وفقره)[1].

والوجه الرابع: أنه يقول لهم: كما أنّ موسى عليه السلام اتخذ أخاه هارون وزيراً، فمن الخير أن تتخذ أعوانك من إخوانك في النسب أو القبيلة أو الحزب أو الجماعة أو الطائفة، فربما استعملوا مَنْ لا يصلح لولاية ولا إدارة ولا رئاسة مِمَنْ لا علم عنده ولا تقوى ولا ورع، فيجتلب بغض الناس ودعاءهم عليهم

(١) أخرجه أبو داود برقم ٢٩٥٠، وأخرجه أحمد في مسنده برقم ٢٢١٢٩ عن معاذ رضي الله عنه، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٢٠٧٥٥، والحاكم في المستدرك برقم ٧٠٢٧والطبراني في المعجم الكبير برقم ١٦٧٣٤ عن معاذ رضي الله عنه، وقد صحح شعيب الأرناؤوط خبر أحمد وقال: صحيح لغيره، وقال الحاكم: إسناده شامي صحيح، ووافقه الذهبي.

بظلمه ، ويظنون أنهم قد أُعذروا إلى الله بما جعلوه في عنق من ولَّوْه، قال ابن الجوزي رحمه الله: هيهات! إنّ العامل على الزكاة إذا وكّل الفسّاق بتفرقتها فخانوا ضمن.

والوجه الخامس: أنه يحسِّن لهم تصرفاتهم، ويزيّن لهم سوء أعمالهم، ويقول لهم: لا بدّ للدولة من نظام رادع وسيف قاطع سداً لذرائع التفلت، وإشاعة لأسباب الأمن، وحسماً لمن تحدّثه نفسه بالفساد والضلال، سياسة شرعية، والسياسة مبناها الاجتهاد وتقدير المصالح والمفاسد ، فيقطعون من لا يجوز قطعه، ويقتلون من لا يحل قتله، ويوهمهم أنها السياسة الشرعية، قال صاحب التلبيس: « وتحت هذا من المعنى أن الشريعة ناقصة تحتاج إلى إتمام ونحن نتمها بآرائنا. وهذا من أقبح التلبيس لأن الشريعة سياسة إلهية، ومحال أن يقع في سياسة الإله خلل يحتاج معه إلى سياسة الخلق قال الله عز وجل: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام ٣٨] وقال: ﴿**لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**﴾ [الرعد ٤١] فمدعي السياسة؛ مدعي الخلل في الشريعة وهذا يزاحم الكفر»[1].

ومما يُرْوَىَ في ذلك: أنّ عضد الدولة أنه كان يميل إلى جارية، وكانت تشغل قلبه وباله، فأمر بتغريقها لئلا يشتغل قلبه عن تدبير الملك. وهذا هو الجنون المطبق، لأنّ قتل مسلم بلا جرم لا يحل، واعتقاده أنّ هذا جائزٌ؛ كفر، وإن اعتقده غيرَ جائز لكنه رآه مصلحة، فلا مصلحة فيما يخالف الشرع.

(١) تلبيس إبليس، ص ١١٩.

والوجه السادس: أنه يحسِّن لهم الانبساط في أموال الدولة العامة، ظانين أنها بحكمهم، وأنّ من حقهم التصرّف فيها كيف شاؤوا وأرادوا.

فيقال لهم: إنْ كان الحجر واجباً على المفرط في مال نفسه! فكيف بالمستأْجَر في حفظ مال غيره؟ بل كيف بالمستأجَر في حفظ مال الله ومال المسلمين؟.

ومن الواجب أن يعلم ولاة أمر المسلمين وكل مسؤول في مؤسسة أو وزارة أو موقع أنه لا يجوز التصرّف في مال المسلمين إلا في حدود مصلحتهم الضرورية والحاجية لا مصلحته، وأنه إنما له من المال بقدر عمله فلا وجه للانبساط فيها بحال.

ومما يُروَى في هذا الباب أنّ حماد الراوية أنشد الوليد بن يزيد أبياتاً فأعطاه خمسين ألفاً وجاريتين. فقال الفقيه الحنبلي ابن عقيل رحمه الله: « وهذا مما يروى على وجه المدح لهم، وهو غايةُ القدح فيهم، لأنه تبذيرٌ في بيت مال المسلمين».

وقد يزيّن إبليس لبعضهم منع المستحقين حقوقهم، وهو نظير التبذير.

والوجه السابع: أنه يحسن لهم الانبساط في المعاصي ويلبّس عليهم أن حفظكم للسبيل وأمن البلاد، ورعاية مصالح العباد يمنع عنكم العقاب والمؤاخذة.

فيقال لهم: إنّ مهمتكم ووظيفتكم وواجبكم الذي وليتم له هو حفظ البلاد ورعاية مصالح العباد وتأمين الرعية والقيام بتدبير أمورهم وشؤونهم، فهذا واجب عليكم، وهو المعقود عليه الذي تأخذون عليه أجركم، وإنّ ما

انبسطتم فيه من المعاصي منهي عنه محرّم عليكم، فلا يرفع هذا ذلك.

والوجه الثامن: أنه يحسن لهم استجلاب الأموال واستخراجها ولو بالضرب العنيف والتعذيب وأخذ كل ما يملكه، إنْ وقعت خيانة أو ظُنَّ بها، من والٍ أو مسؤول، وليس هذا هو سبيل المؤمنين ولا طريق الصالحين في استخلاص الحق ، وإنما الطريق إقامة البينة على الخائن. ومما يُروَى في ذلك، أنّ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كتب له بعض عُماله وولاته: أنّ قوماً خانوا في مال الله، ولا أقدر على استخلاص ما في أيديهم إلا أن أنالهم بعذاب. فكتب إليه عمر: لأن يلقوا الله بخيانتهم أحبُّ إليَّ من أن ألقاه بدمائهم.

والوجه التاسع: أنه يحسّن لهم التصدّق من مال المسلمين أو من مال الغير بعد الغضب، ويريهم أنّ هذا يمحو ذلك، ويقول لهم غاشّاً لهم: إنّ درهماً من الصدقة يمحو إثم عشرة من الغضب. قال ابن الجوزي: « وهذا محال، لأنّ إثم الغضب باق ودرهم الصدقة إن كان من الغضب لم يقبل، وإن كانت الصدقة من الحلال لم يدفع أيضاً إثم الغصب، لأن إعطاء الفقير لا يمنع تعلق الذمة بحق آخر»[1].

قلت: والتصدق مندوب إليه مستحب، بشرطه، وهو أن يكون من حلال طيب، ولما كان المال المتصدق به من غصب أو حرام، لم ينفعه التصدق به لأن الله لا يقبل إلا طيباً. ولما كان التصدق مندوباً والأخذ من مال المسلمين أو الغصب

(١) تلبس إبليس، ص ١٢٠.

حراماً؛ فلا يقابل الحرام بمندوب أبداً.

والوجه العاشر: أنه يحسّن لهم مع الإصرار على المعاصي زيارة الصالحين وسؤالهم الدعاء ويريهم أن هذا يخفف آثام المعاصي وربما محاها. وفي الخبر عن الحسين بن زياد قال سمعت منيعاً يقول: مرّ تاجرٌ بعشَّار فحبسوا عليه سفينته، فجاء إلى مالك بن دينار رحمه الله فذكر له ذلك. فقام مالكٌ رحمه الله فمشى معه إلى العشَّار، فلما رأوه قالوا: يا أبا يحيى! ألا بعثت إلينا في حاجتك؟. قال: حاجتي أن تخلُّو عن سفينة هذا الرجل. قالوا: قد فعلنا. وكان عندهم كوز يجعلون ما يأخذون من الناس من الدراهم فيه، فقالوا: ادع لنا يا أبا يحيى!. قال: قولوا للكوز يدعو لكم، كيف أدعو لكم وألفٌ يدعون عليكم؟ أَتَرى يُستجاب لواحدٍ ولا يستجاب لألف؟!!.

والوجه الحادي عشر: أنّ من الولاة من يعمل لمن فوقه فيأمره بالظلم فيظلم، ويلبّس عليهم إبليس بأن الإثم على الأمير لا عليك. وهذا باطلٌ، لأنه معين على الظلم وكل معين على المعاصي عاص فان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن في الخمر عشرة ولعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ومن هذا الفن أن يجبي المال لمن هو فوقه وقد علم أنه يبذلأ فيه ويخون فهذا معين على الظلم أيضا وفي الحديث بإسناد مرفوع إلى جعفر بن سليمان قال سمعت مالك بن دينار رحمه الله يقول: « كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة» [1].

(١) البيهقي في شعب الإيمان ، برقم ٨٩٨٤، ج١٢ ص ١٤.

٥ـ حُبُّ الـرِّياسَـة:

ومن مثالب التكليف ومسالب التوظيف حبّ الرِّياسة، إنه الداء العضـال، ما أُصيب به أحدٌ إلاّ كـان عـلى شـفا جُـرُفٍ هـارٍ ينهـار بـه في سـحيق القسـوة والنشوة، ونعيق النفاق والشقاق، وشهيق الباطل والمحُال.

لذلك؛ تجدُ أهل التّزكية والتّربية ممن يُصيغون الصالحين من العباد، ويربّون المصلحين في العباد؛ لايفتـأون يـذكِّرون بـضرورة إخـراج حـبّ الرياسـة مـن الرؤوس، ومحوه من النفوس، حتـى يسـتقيموا عـلى جـادة الطريـق والطريقـة، ويلتئموا مع سُدَّة الحق والحقيقة.. مع أنّ الرياسة هي الـشرف الظـاهر، والجـاه الباهر، فلماذا كانوا كذلك؟!. كانوا كذلك لمثالب من أخـذها بغـير حقهـا، ومـا أكثرها وما أضرّها وأشرّها..

- فإنّ من مثالب حبّ الرّياسة طلب عيوب الناس، كما قـال الإمـام احمـد بن حنبل لسفيان الثوري رحمهما الله تعالى: « حبّ الرّياسة أعجب إلى الرجل مـن الذهب والفضة ، ومن أحبّ الرّياسة طلب عيوب الناس »[1].

- ومن مثالبها لمن طلبها من غير وجهها: أنها تورثه الخساسة، و هـذا هـو منصور بن إسماعيل رحمه الله ينشد لنفسه مذكّراً لها سوء عاقبتها :

الكلب أكرم عشرة وهو النهاية في الخساسة

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح، ج٢ ص ٣٤١.

ممن ينازع في الرّياسة قبل أوقات الرّياسة[1].

• ومن مثالبها لمن أخذها بغير حقّها: ما نبّه إليه الإمام الثوري رحمه الله فقال: «ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرّياسة، ترى الرّجل يزهد في المال والثياب والمطعم، فإذا نوزع في الرياسة حامى عليها وعادى»[2].

• ومن مثالبها لمن طلبها بغير وجهها: أن طلبها يسوّد قلبه بالحسد والغل والبغي وكراهة الأخيار، وكما قال الفضيل بن عياض رحمه الله: « ما من أحدٍ أحبَّ الرِّياسة إلا حَسَدَ، وبَغَى، وتَتَبّع عيوب النّاس، وكره أن يُذْكَر أحد بخير»[3].

وكما قال أبو العتاهية:

حبُّ الرِّياسة أَطْغَى من عَلَى الأرض

حتى بَغَى بعضهم فيها على بعض

• ومن مثالبها أنها تسلب النجاة في عالم الإيمان، ورحم الله أبا نعيم فهو الذي قال:« والله ما هلك من هلك إلا بحبّ الرّياسة».

ومما قيل في ذلك:

أأُخيَّ من عشق الرياسةَ خفتُ أنْ

يطغَى ويُحدث بدعةً وضلالا

(١) العزلة للخطابي، ج١ ص ٢١٤.

(٢) الورع لأحمد بن حنبل، ج١ ص ٩٦، وحلية الأولياء ج٧ ص ٣٩.

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ج١ ص ٢٨٦.

وقالوا:

حب الرياسة داء يخلِـق الدينـــا ويجعل الحب حربًا للمحبينـــا

يفري الحلاقم والأرحام يقطعها فلا مروءة يبقي لا ولا دينـــا

من ساد بالجهل أو قبل الرسوخ فـ ـلا تراه إلا عدوًّا للمحقينـــا

يبغي ويحسد قومًا وهو دونهـــم ضاهى بذلك أعداء النبيينـــا [1]

ثم بعد أن تعلقت نفسه بالرياسة وانغلق عقلـه عـلى حبهـا، وانغلـف قلبـه بشغفها؛ شقّ أن ينخلع عن هواها، فيبذل لاستبقائها كـلّ غـالٍ ونفـيس، وكـلّ عزيزٍ كريم ، وربما حيناً من الغفلة باع شيئاً من دينه،

فحبّ الرّياسة داءٌ لا دواء له وقلّ ما تجد الراضين بالقسم

وكما قال إسحاق بن خلـف رحمـه الله: « والله الـذي لا إلـه إلا هـو لإزالـة الجبال الرواسي أيسر من إزالة الرياسة » [2]. أي من القلوب والنفوس.

فالزهد في الرياسة أشدّ من الزهد في الدنيا، كما قال يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى [3].

ولقد قيل: آخرُ ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حبُّ الرّياسة [4].

وما أجمل موعظة أبي عثمان رحمه الله فـي هذا الباب حتى يوصد عن مبتغيها

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، ج١ ص ٢٨٧.

(٢) جامع بيان العلم وفضله الموضع السابق نفسه.

(٣) حلية الأولياء، ج٨ ص ٢٣٨.

(٤) إحياء علوم الدين، للإمام حامد الغزالي، ج٣ ص ٢٧٥.

لغير وجهها، فقد قال في مواعظه: « يا عبد الله ! فيمَ ذا تُتْعِبُ قلبك؟ وتنازع إخوانك؟، وتعادي على طلب الرّياسة والعزّ أشكالك وأخدانك؟ وتعمل في هلكة حسناتك بالحسد لمن هو فوقك؟ كأنك لم تؤمن بمن أخبر أنه يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ؟ فاستعمل العلم في ظاهرك إن كنت تاجرًا أو كاسباً أو زارعاً، وأجمل في الطلب، واترك الحرام والشبهات جميعاً، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وحظها من عزها ورياستها ورزقها، ولو هرب العبد من رزقه لأدركه رزقه، كما لو فر من الموت»[1]. أي لأدركه الموت .

وحبّ الرياسة يسلمه إلى:

٦ـ التشبّث بالمنصب:

وهذا سمّةٌ وعلامةٌ من علاماتِ حبّ الدنيا، وأثرٌ من آثار التعلّق بها، وكثيرٌ ممن يُطلب منهم تولّي منصب من المناصب ـ وزارة أو ولاية أو إدارة أو وكالة ـ يتأبّى ذلك في نفسه في أول الأمر، ثم يقبل على مضض وكُره، سمعاً وطاعة للأمير ولي الأمر، ثم لا يلبث طويلاً أن يغمر قلبَه حبُّ البقاء وكراهة الاستعفاء، فيسعى لئلا ينزع منه عرشه، أو يؤخذ منه كرسيّه بكل سبيل، ولعل بعض من ضعف إيمانهم يلجئون إلى التوسل بما لا يجوز التوسل به من الطرق

(١) شعب الإيمان للبيهقي ، خبر رقم ١٢١٩، ج٢ ص ٤٥٧.

الملتوية، والسبل المحرمة، والوسائط الناقضة للعقيدة، والأساليب المناقضة للكرامة، ليبقى على كرسيه، ولو اسماً أو رسماً.

وهكذا!!..

تشبّثٌ بالمنصب، لدرجة أنه ينهار ويذهل ويُجنّ ويهيم على وجهه مكبّاً عليه إذا نُزع منه أو استُعْفي، والله هو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

ولقد ضرب بعضهم أسوأ مثال في التشبث بالمنصب والوظيفة فبكى وانتحب، وخاصم وفجر، وجاهر بالعداوة لمن ظنّ أنه المتسبّب، وانقلب عن نصرة الجماعة والطاعة لأميره، يخرج عنهم، إنْ لم يخرج عليهم، كأن المنصب مكتوب له من الأزل إلى الأبد، وكأنّه مخلوق له لا يصلح فيه سواه أحد، أو كأنه لن يعيش بلا ذاك المنصب.

وهذا من وهن القلوب، وهو انفصام عن عروة الإيمان الوثقى إلى واهيات الدنيا.

وقديماً كان في الناس ذلك..

قال الأعمش رحمه الله: « قال لي محارب بن دثار: « وُليت القضاء فبكى أهلي، وعُزلت عنه فبكوا، فما أدري مم ذاك؟» فقلت له: « وليت القضاء فكرهته وجزعت منه فبكى أهلك، وعزلت عنه فكرهت العزل وجزعت منه فبكى أهلك». فقال: إنه لَكَما قلت»[1].

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة، ج١ ص ٣٠.

ولهذا؛ وضع صاحب الشرع القاعدة في التولية والاختيار للوظيفة العامة فقال صلى الله عليه وسلم: (إنا والله لا نولي على هذا العمل أحداً سأله ولا أحداً حرص عليه)[1]. وفي الفتح عن المهلب رحمه الله قال: « الحرص على الولاية هو السبب في اقتتال الناس عليها حتى سفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج وعظم الفساد في الأرض بذلك »[2].

❑ ❑ ❑

إننا لو واصلنا التذكير بكل ما يقع لمتولي المناصب العليا والوظائف الكبرى من أخطاءٍ وخطيئات لطال المقام واستطال المقال، فنرجو أن يكون فيما ذكرناه الموعظة المطلوبة والذكرى النافعة، والذكرى لا شكّ تنفع المؤمنين.

❐ ❐ ❐

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٦٧٣٠، ومسلم في صحيحه برقم ١٧٣٣، وابن حبان برقم ٤٤٨١، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٢٠٠٣٥، وابن أبي شيبة ٣٢٥٤١، واللفظ لمسلم وغيره.

(٢) فتح الباري، لابن حجر، ج١٣ ص ١٢٦.

الفصل الثالث

في عظم الحساب

الفصل الثالث

في عِظَمِ الحساب

وقفنا على ثقل التكليف ومثالبه ومسالبه التي تضعف التعلق بها والوله بتوليها والحرص عليها والسعي إلى الحكام والأمراء والرؤساء والسلاطين بكل سبيل تعرّضاً لهم ليُولُّوهم إياها..

ونزيد ههنا الموعظة والتذكرة بسوء المآل وشر العاقبة وما ينتظر أهل المناصب والوظائف العليا والعامة من حساب شديد من أول القدوم على رب العالمين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والله تعالى أكرم الأكرمين أسأله أن نأتيه جميعاً بقلب سليم عن المكر السيّيء، ويدٍ نقيةٍ عن البطش والظلم.

فكيف حال الأمراء والوزراء والقضاة والسلاطين والحكام والملوك يوم الحساب؟!.. وماذا ينتظرهم.

أهوال الحساب تنتظرهم.. عظم الحساب ينتظرهم.. شدة الحساب تنتظرهم..

إنها ولايات ومناصب ووظائف تجمع فعلاً بين ثقل التكليف وعظم الحساب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإليك بعض ما ينتظرهم من عظم المحاسبة ومن عظم المعاقبة، نسأل الله العفو والسلامة.

المبحث الأول

عِظَـــــم المحاسبـــة

فإنّ أول ما يُفعل بأصحاب المناصب والولاية يوم القيامة أن يريهم الله ملكه وقهره وقدرته وقوته وجبروته، يريهم أول ما يريهم سوء العاقبة قبل أن يحاسبوا، ولو كانوا أصحاب عدل وورع وتقوى وصلاح. ليعرف من يأخذ هذه المناصب بغير حقها ولم يؤد الذي عليه فيها أنه في خطر عظيم.

عن عاصم بن سفيان الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعَثَ إِلَيْهِ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى بَعْضِ الصَّدَقَةِ، فَأَبَى أَنْ يَعْمَلَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ:"إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُمِرَ بِالْوَالِي فَيُوقَفُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ، فَيَأْمُرُ الْجِسْرَ فَيَنْتَفِضُ انْتِفَاضَةً، فَيَزُولُ كُلُّ عَظْمٍ مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ، ثُمَّ يَأْمُرُ الله الْعِظَامَ فَتَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ، ثُمَّ يَسْأَلُ، فَإِنْ كَانَ لله مُطِيعًا اجْتَبَذَهُ، فَأَعْطَاهُ كِفْلَيْنِ مِنَ الأَجْرِ وَإِنْ كَانَ لله عَاصِيًا حَرَفَ بِهِ الْجِسْرَ، فَهَوَى إِلَى جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا". فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : سمعت من رسول الله ﷺ ما لم نسمع ؟ قال: نعم . قال: وكان سلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري حاضرين، فقال سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إي والله يا عمر بن الخطاب، ومع السبعين سبعون خريفاً في واد من نار يلتهب التهاباً "، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيده على جبهته: إنا لله وإنا إليه راجعون، من يأخذها بما فيها ؟ فقال

سلمان: " من سلب الله أنفه وألزق خده بالأرض"[1].

وفي مصنف ابن أبي شيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال عاصم رضي الله عنه: لا حاجة لي فيه، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْوُلاَةَ يُجَاءُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيوقَفُونَ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ، فَمَنْ كَانَ مِطْوَاعًا لله تَنَاوَلَهُ الله بِيَمِينِهِ حَتَّى يُنْجِيَهُ، وَمَنْ كَانَ عَاصِيًا لله انْخَرَقَ بِهِ الْجِسْرُ إِلَى وَادٍ مِنْ نَارٍ، يَلْتَهِبُ الْتِهَابًا »، فَأَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى سَلْمَانَ وَأَبِي ذَرٍّ رضي الله عنهما، فَقَالَ لأَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَالله، وَبَعْدَ الْوَادِي وَادٍ آخَرَ مِنْ نَارٍ، وَسَأَلَ سَلْمَانَ فَلَمْ يُخْبِرْهُ بِشَيْءٍ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: مَنْ يَأْخُذُهَا بِمَا فِيهَا ؟ فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: مَنْ سَلَتَ الله أَنْفَهُ وَعَيْنَيْهِ، وَأَضْرَعَ خَدَّهُ إِلَى الأَرْضِ[2].

وفي خبر أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ قال: (ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى الله عز وجل يوم القيامة يده إلى عنقه، فكّه برّه أو أوبقه إثمه، أولها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها خزيٌ يوم القيامة)[3].

وفي حديث الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ النّبي ﷺ قال: (ما من حَكَمٍ يحكم بين الناس إلا حُبس يوم القيامة وملك آخذٌ بقفاه حتى يقفه على

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم ٦٩٩٨، والطبراني في المعجم الكبير برقم ١٣٩٠٠، وابن أبي شيبة في المصنف برقم ٥٣٣٢٠.

(٢) ابن أبي شيبة في المصنف في الأحاديث والآثار، برقم ٥٣٣٢٠.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ج٥ ص ٢٦٧، وذكره السيوطي في الجامع الصغير برقم ٨٠٣٩، ورمز إلى تحسينه.

جهنم، ثم يرفع رأسه إلى الله ﷻ فإن قال: أَلْقِه، ألقاه في مهوىً فَهَوَىَ أربعين خريفاً)[1].

ومن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (ويلٌ للأمراء، ويلٌ للعرفاء، ويلٌ للأمناء، ليتمنين أقوامٌ أنّ ذوائبهم كانت معلقة بالثريا يتذبذبون بين السماء والأرض ولم يكونوا عُمّلوا على شيء)[2].

وفي الأدب المفرد للبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَظَرَ إِلَى نَجْمٍ عَلَى حِيَالِهِ فَقَالَ : "وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ، لَيَوَدَّنَّ أَقْوَامٌ وَلُّوْا إِمَارَاتٍ فِي الدُّنْيَا وَأَعْمَالاً أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَعَلِّقِينَ عِنْدَ ذَلِكَ النَّجْمِ، وَلَمْ يَلُوا تِلْكَ الإِمَارَاتِ، وَلاَ تِلْكَ الأَعْمَالَ ."[3].

وقال طاووس لسليمان بن عبد الملك رحمهم الله تعالى: "هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذاباً يوم القيامة؟ قال سليمان: لا أدري. قال طاووس: "أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله في ملكه، فجار في حكمه". فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي، فما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه[4].

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه برقم ٢٣١١، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٧٥٣٣، والبزار في مسنده برقم ١٣٥١، وأحمد في المسند ج١ ص ٤٣٠، وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ج٢ ص ٣٥٢، وقال الهيثمي: رجاله ثقات في طريقين من أربعة، وقال الشوكاني في النيل ج٨ ص ٣٤٩: حسنه السيوطي.

(٣) البخاري في الأدب المفرد، برقم ٧٨١، ج١ ص ٢٧٣.

(٤) سراج الملوك للطرطوشي، ص ٤١.

ويروى أن رجلاً قال لعبيد الله العمري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا هارون الرشيد في الطواف قد أخلي له المسعى، فقال له: لا جزاك الله عني خيراً كلفتني أمراً كنت عنه غنياً! ثم جاء إليه فقال: يا هارون! فلما نظر إليه قال: لبيك يا عم! قال: كم ترى ههنا من خلق الله تعالى؟ قال: لا يحصيهم إلا الله. قال: اعلم أيها الرجل أنَّ كل واحد منهم يُسأل عن خاصة نفسه، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلهم، فانظر كيف تكون؟ قال: فبكى هارون وجلس فجعلوا يعطونه منديلاً منديلاً للدموع، ثم قال له: والله إن الرجل ليسرف في مال نفسه فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن أسرف في مال المسلمين؟ فيقال إن هارون كان يقول بعد ذلك: إني أحب أن أحج في كل عام، وما يمنعني من ذلك إلا عبيد الله العمري[1].

ولهذا كان الولاة الصالحون والأمراء غير الغافلين يخافون سوء الحساب، مع أنهم كانوا صالحين متقين رضوان الله عليهم.

صورٌ من خوف الصالحين من عاقبة الولاية:

١ـ أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ :

فهذا خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع صدقه وصديقيته، وعلو كعبة في الطاعة والعبادة، وقوة إيمانه وما له من فضل لا يدانيه فيه أحد بعد النبيين رضي الله تعالى عنه؛ يخشى على نفسه عاقبة الإمارة والخلافة حين احتضر وجاءه الموت يقول لابنته عائشة: « يا بنية! إني أصبت من مال المسلمين هذه

(١) المصدر السابق.

العباءة، وهذا الحلاب، وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب. وقال: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد». وقال قتادة: « بلغني أن أبابكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ليتني كنت خضرة تأكلني الدواب». وكان يقول: «لوددت أني كنت شعرة في جنب عبد مؤمن»[1].

٢ـ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أنه فاروق الأمة؛ كان يخاف من السؤال والمساءلة والحساب والمحاسبة أشد الخوف!!..

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ تذكيراً لنفسه ـ ربما توقد له النار، ثم يدني يده منها، ثم يقول: ابن الخطاب! هل لك على هذا صبرٌ؟.

وقال الضحاك رَحِمَهُ اللَّهُ: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " ليتني كنت كبش أهلي، سمنوني ما بدالهم، حتى إذا كنت أسمن ما أكون زارهم بعض من يحبون، فجعلوا بعضي شواءً وبعضي قديداً، ثم أكلوني فأخرجوني عذرة، ولم أك بشراً.

وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة رَحِمَهُ اللَّهُ: رأيت عمر بن الخطاب رضوان الله عليه أخذ تِبْنة من الأرض، فقال: ليتني كنت هذه التِّبْنة، ليتني لم أُخلق، ليت

(١) انظر: الزهد، للإمام أحمد ص ١٠٨ـ ١١٢، الجواب الكافي لابن القيم، ص ٣٦، الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق د. علي الصلابي، ص ١٢٢ - ١٢٣.

أمي لم تلدني، ليتني لم أك شيئاً، ليتني كنت نسياً منسياً[1].

٣ـ هرم بن حيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وكان هرمٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد ولاّه عمر بن الخطاب رضوان الله عليه بعض الأعمال، قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: "خرج هرم بن حيان وعبد الله بن عامر يؤمان الحجاز، فجعلت أعناق رواحلهما تتخالجان الشجر. فقال هرمٌ لابن عامر: أتحبّ أنك شجرة من هذه الشجر؟ فقال ابن عامر: لا والله، لما أرجو من ربي عز وجل. فقال هرم: لكني والله لوددت أني شجرة من هذه الشجر أكلتني هذه الراحلة ثم قذفتني بعراً ولم أكابد الحساب، يا ابن عامر إني أخاف الداهية الكبرى إما إلى الجنة وإما إلى النار.

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان هرم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفقه الرجلين وأعلمهما بالله عَزَّوَجَلَّ[2].

٤ـ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: يا أمير المؤمنين! أذكر بمقامي هذا مقاماً لا يشغل الله عنك كثرة من تخاصم من الخلائق يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنب. فبكى عمر بكاء شديداً ثم استرده الكلام، فجعل يردده وعمر يبكي وينتحب، ثم قال: حاجتك؟ فقال: عاملك بأذربيجان أخذ

(١) راجعها في:مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب،لابن الجوزي،ص١٦٢،طبقات ابن سعد،ج٣ص٣٦٠.

(٢) صفة الصفوة، لابن الجوزي، ج١ ص ٣٥٣.

مني اثني عشر ألف درهم. فقال: اكتبوها له حتى ترد عليه. ولما دخل زياد على عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: يا زياد ! ألا ترى إلى ما ابتُليتُ به من أمر أمة محمد ﷺ؟ فقال زياد: يا أمير المؤمنين والله لو أن كل شعرة منك قطعت؛ ما بلغت كنه ما أنت فيه، فاعمل لنفسك في الخروج مما أنت فيه يا أمير المؤمنين كيف حال رجل له خصم ألدّ؟ قال: سيئ الحالة. قال: فإن كان له خصمان ألدان؟ قال: أسوأ الحالة. قال: فإن كانوا ثلاثة؟ قال: لا يهنيه عيش. قال: فو الله ما من أحد من أمة محمد ﷺ إلا وهو خصمك!. فبكى حتى تمنيت أن لا أكون قلت له ذلك[1].

وكان لعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُنادٍ ينادي كل يوم: "أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟" وكان يبكي حتى يبلَّ لحيته ويقول: «يا رب، ما جعلني أحق هذه الأمة بهذا الأمر؟»[2].

❑❑❑

(١) سراج الملوك للطرطوشي، ص ٢٤.

(٢) التذكرة الحمدونية، لابن حمدون منحمد بن الحسن بن علي، ج٣ ص ١٦٣.

المبحث الثاني

عِظَـــم المعاقبـــــة

وبعد أن رأينا شدة وهول وعظم ما ينتظر الولاة والمسؤولين من الحساب والمحاسبة؛ لنرَ ما يؤاخذون به ويحاسبون عليه ويعاقبون بسببه، ونذكر أنواع المسؤولين المتولّين أمور المسلمين وما ينتظر كل واحدٍ منهم.

١ـ المسؤول المحابي:

قليلٌ من لا يحابي أقرباءه وأصدقاءه وجيرانه ومعارفه في وظيفة أو عقدٍ أو عطاءٍ أو مناقصة أو نحو ذلك، فإنْ فعل ذلك؛ انتظره عند الله حساب عسير ومصير وبير . فإنّ من يفعل ذلك من أصحاب الولاية والمناصب المسؤولين يحاكم عند الله بتهمة الخيانة[1]، ثمّ يُحكم عليه بحرمان من الجنة وما قرب منها، يحرمه رب العزة حتى من أنْ يُرِح رائحة الجنة، وقد قال ﷺ: « من ولَّى ذا قرابة محاباة وهو يجد خيراً منه لم يُرِح رائحة الجنة »[2].

ولهذا: لما حضرت الوفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ونصحه بعضهم باستخلاف ولده عبد الله، أبى بشدة، وقال : "حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة، ليس له من الأمر شيء ". ثم التفت إلى ولده عبد الله فقال

(١) راجع فقرة: أسباب الخيانة فيها مشرعة من هذه الرسالة.

(٢) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين، برقم ٣٤٩٩ من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

له: " يا عبد الله، إياك ثم إياك، لا تتلبس بها " . ثم كان آخر وصيته ألا يتحول أمر المسلمين إلى وراثة؛ فقال لعليٍّ رضي الله عنه: "لعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقك وشرفك وقرابتك من رسول الله ﷺ، وما آتاك الله من العلم والفقه والدين فيستخلفوك، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله يا عليّ فيه، ولا تحمل أحداً من بني هاشم على رقاب الناس " وقال لعثمان رضي الله عنه: " يا عثمان! لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله ﷺ وسنّك وشرفك وسابقتك، فيستخلفوك ، فإن وليت هذا الأمر فلا تحمل أحداً من بني أمية على رقاب الناس"[1].

٢ـ المسؤول المقصّـــر:

ومن لم يجتهد للرعية ومن ولي أمرهم من المسلمين؛ وتقاعس دون القيام بحقهم وأغفل عن ما يجب عليه في شأنهم من التدبير اللازم وبذل الجهد في إصلاح أحوالهم وكل ما ينبغي أن يقدّمه لهم؛ كان مقصّراً، ومن كان مقصّراً كيفما كان ذلك التقصير في حق رعيته لن يكون معهم حين يجازيهم ربهم بالنعيم والرضوان ويدخلهم الجنان، بل يُصدّ من أبواب الجنة ويمنع من دخولها، يراهم يسبقونه ويتجاوزونه يدخلون الجنان وهو مصدود مردود من أبوابها، وفي الصحيح أنّ عُبَيْدَ الله بْنَ زِيَادٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو الوالي دَخَلَ عَلَى الصحابي الجليل مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِي مَرَضِهِ، فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ: إِنِّي مُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ لَوْلَا أَنِّي فِي

(١) تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، للطرسوسي ج١ ص ٥.

الْمَوْتِ لَمْ أُحَدِّثْكَ بِهِ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ الْجَنَّةَ»(١).

بل يطرد بعيداً حتى من أبواب الجنان، لئلا يجد ريح الجنة وإنّ ريح الجنة ليوجد من مسيرة خمسمائة عام كما في الأخبار الصحيحة، ففي صحيح البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن النبي ﷺ قال: « ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصيحة إلاّ لم يجد رائحة الجنة»(٢).

وفي صحيح ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " إنّ الله سائل كل راعٍ عما استرعاه أحفظأم ضيّع "(٣).

وفي الطبراني رَحِمَهُ ٱللَّهُعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: " ما من راعٍ يسترعي رعيةً إلا سُئل يوم القيامة أقام فيها أمر الله أم أضاعه"(٤).

٣ـ المسؤول الغاشّ رعيتَه:

وهذا سبب آخر للحساب العسير والعقاب الكبير، فإنه لما ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين؛ كان واجباً عليه أنْ يكون معهم صادقاً ولهم ناصحاً

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٤٧٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٦٦١.

(٣) صحيح ابن حبان برقم ٤٤٩٢، ج١٠ ص ٣٤٤.

(٤) الطبراني في الأوسط وفيهأبو عباش المصري وهو مستور وبقية رجالة ثقات كما في مجمع الزوائد للهيثمي ج٥ ص ٢٠٧.

وبمسؤوليته عليهم أميناً متيناً..!! وبدل أن يكون ناصحاً أميناً، صار لهم غاشّاً، وعن وعوده لهم طاشَّاً..

وما أكثر هؤلاء اليوم، فإنّ أحدهم كثيراً ما يعدهم فيخلف وعده لهم، يعدهم ويمنيهم بمصالح لهم تتحقق على يديه، وبمفاسد تُدرءُ وتزال عنهم بيديه، وعدهم ومنّاهم وما وعدهم في الواقع إلاّ غروراً!!.. لإنّه إذا حصّل أصواتهم وجمعها في صندوقه؛ وبلغ بها مواضع القرار في البرلمان أو الوزارة، لا يلبث أن ينسى ما بشّر به أهله، ويخلف ما وعد به ناخبيه!!..

هؤلاء إنْ كانوا عند وعدهم، باقين على صدقهم مع أهلهم ورعيتهم، أمينين على مسؤولياتهم؛ لأحبتهم القلوب المؤمنة، ونطقت بالثناء عليهم ألسنة الخلق، وأعانوهم على أمرهم ففازوا ونجحوا وأنجزوا وبقوا أعزاء محبوبين على كراسيهم، كما قال سيدنا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: " من كانت له عند الناس ثلاثة؛ وجبت له عليهم ثلاث: من إذا حدَّثَهم صَدَقَهُم، وإذا ائتمنوه لم يخنهم، وإذا وعدهم وفَّى لهم؛ وجب له عليهم: أنْ تحبه قلوبهم، وتنطق بالثناء عليه ألسنتهم، وتظهر له معونتهم"[1].

هؤلاء وأمثالهم من المسؤولين الغاشّين لأمتهم ورعيتهم؛ مصيرهم عند الله يوم القيامة ما أخبر به نبي الأمة ﷺ: « ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح، ج١ ص ٥٣، بهجة المَجالس وأنس المُجالِس، لابن عبد البر، ص ١٢٦.

يموت وهو غاشٌّ لرعيته؛ إلا حرم الله عليه الجنة»[1].

٤ـ المسؤول المختلس:

وهذا النوع من المسؤولين كثروا في هذا العصر، تجده كان قبل أن يولَّى فقيراً مدقعاً يبيت خاوي الوفاض وطاوي الأحشاء، فإذا تولّـَى ولاية أو كُلِّف بمنصب رفيع؛ تغيّر حاله من الفقر إلى الغنى، ومن العيلة والقلة إلى الثراء، يملك السيارات والدور والقصور والتحف والعجائب، كل ذلك لا من تجارة ولا عمل سوى كونه مسؤولاً موظفاً عاماً من موظفي الدولة، فمن أين له هذا؟ إنه الغنى الوظيفي. وكيف له هذا؟ بأخذ ما لا يجوز له، وتجنيب ما يتمكن من تجنيبه، والمضاربة بمال المسلمين العام في أعماله الخاصة، واستغلال موقعه ومكانته وعلاقاته وجاهه في استخلاص أرض، أو استيراد سلع، أو الاستثثار بمشروع، ونحو ذلك، حتى تكونت له الثروات وظهر عليه الغنَى.

هذا المسؤول يوم الحساب الكبير يأتي محمّلاً بكل ما استغله بوضعه وموقعه، وقد أخبر النبي ﷺ عن أمثال هؤلاء ناصحاً لهم قبل ان لا ينفع النصح، فقال: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٤٧٠٦. مسند عبد بن حميد برقم ٤٠١، سنن الدارمي برقم ٢٨٥٢، شعب الإيمان للبيهقي برقم ٦٩٧٧.

شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ»[1].

٥ـ المسؤول المتساهل في المال العام:

والمسؤول المتساهل مع المال العام، المضيّع غير الحافظ له، لا يتعامل معه بورع، يتخوّض فيه، فهذا المسؤول الذي تلاعب في مال المسلمين، وخرط منه لنفسه أو لغيره دون وجه حقّ ، إذا حلَّ به المقام بين يدي الله يوم القيامة تمنّى لو لم يَلِ شيئاً، تمنّى لو وقع من شاهق فكان تراباً قبل أن يتولّى شيئاً من أمر المسلمين، هذا وأمثاله مصيرهم إلى النار، كما أخبر النبي المختار ﷺ :(إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمْ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2].

والإشكال الذي يقع فيه المسؤول فيتساهل أو يتصرف في المال العام بهواه؛

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٢٨٤٤، ومسلم برقم ٣٤١٢، وابن أبي شيبة في المصنف برقم ٣٤٢١٦، وأحمد في المسند برقم ٩١٣٩. واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٢٨٨٦، وأحمد في المسند برقم ٢٦٠٥٥.

ظنّه أنه ممكّن من هذا المال، وأنّ له الحقّ في الصرف منه كيف يشاء،فيعطي من شاء ويحرم من شاء، من غير نظرٍ مسؤولٍ ولا تقديرٍ لمصلحة المؤسسة أو العمل أو البلاد، ولا ترتيب بين ما هو ضروري وحاجي وتحسيني، فيتخوّض لهذا السبب وغيرِه في مال المسلمين ومال الله بالتي هي أسوأ.

ومن ذلك ما وقع من مروان بن الحكم رحمه الله،ففي المستدرك عَنْ سَعِيْدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، عَنْ سَعْدٍ بن أبي وقّاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : >جَاءَ الْحَارِثُ بْنُ الْبَرْصَاءِ وَهُوَ فِي السُّوقِ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا إِسْحَاقَ ، إِنِّي سَمِعْتُ مَرْوَانَ يَزْعُمُ أَنَّ مَالَ الله مَالُهُ مَنْ شَاءَ أَعْطَاهُ، وَمَنْ شَاءَ مَنَعَهُ ، فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ سَمِعْتَهُ يَقُولُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ سَعِيدٌ : فَأَخَذَ بِيَدِي سَعْدٌ وَبِيَدِ الْحَارِثِ حَتَّى دَخَلَ عَلَى مَرْوَانَ ، فَقَالَ : يَا مَرْوَانُ ! أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ مَالَ الله مَالُكَ، مَا شِئْتَ أَعْطَيْتَهُ وَمَنْ شِئْتَ مَنَعْتَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ: فَأَدْعُو، وَرَفَعَ سَعْدٌ يَدَيْهِ، فَوَثَبَ إِلَيْهِ مَرْوَانُ وَقَالَ: أَنْشُدُكَ الله أَنْ لا تَدْعُوَ، هُوَ مَالُ الله مَنْ شَاءَ أَعْطَاهُ وَمَنْ شَاءَ مَنَعَهُ».[1].

ويؤكّد هذا المعنى المهمّ أمير المؤمنين صاحب رسول الله وكاتب وحيه معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما أخبر أبو قبيل حيي بن هانئ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ معاوية رضي الله عنه صعد المنبر يوم الجمعة فقال عند خطبته: «أيها الناس! إنّ المال مالنا، والفيء فَيْؤنا، من شئنا أعطيناه، ومن شئنا منعناه». فلم يجبه أحد. فلما كان

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم ٦١٢٤، ج٣ ص ٥٠٠، وبرقم ٦١٢٣.

الجمعة الثانية قال مثل ذلك، فلم يجبه أحد. فلما كانت الجمعة الثالثة قال مثل مقالته، فقام إليه رجل ممن حضر المسجد فقال: «يا معاوية! كلا، إنما المال مالنا، والفيء فَيْؤنا، من حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيافنا». فنزل معاوية رضي الله عنه ، فأرسل إلى الرجل، فأُدخل عليه، فقال القوم: هلك الرجل. ففتح معاوية الأبواب، فدخل الناس عليه، فوجدوا الرجل معه على السرير، فقال معاوية للناس: >إن هذا أحياني أحياه الله، سمعت رسول الله × يقول: سيكون أئمة من بعدي، يقولون فلا يرد عليهم قولهم، يتقاحمون في النار كما تقاحم القردة. وإني تكلمت أوّل جمعة فلم يردّ عليّ أحد، فخشيت أن أكون منهم؛ ثم تكلمت الثانية فلم يرد علي أحد، فقلت في نفسي: إني من القوم. فتكلمت الجمعة الثالثة، فقام هذا الرجل فردّ عليّ، فأحياني أحياه الله، فرجوت أن يخرجني الله منهم». فأعطاه وأجازه.

قيل: إن هذا القائل لمعاوية هذا القول أبو بحرية عبد الله بن قيس السكوني.

وفي يوم من أيامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطب الناس، وقد حبس العطاء شهرين أو ثلاثة، فقال له أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ : «يا معاوية! إنّ هذا المال ليس بمالك ولا مال أبيك ولا مال أمك». فأشار معاوية إلى الناس أن امكثوا؛ فنزل واغتسل، ثم رجع فقال: «أيها الناس! إنّ أبا مسلم ذكر أن هذا المال ليس بمالي ولا مال أبي ولا مال أمي، وصدق أبو مسلم، إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: الغضب من الشيطان والشيطان من النار، والماء يطفئ النار، فإذا غضب أحدكم

فليغتسل. اغدوا على عطائكم على بركة الله عز وجل».[1].

٦ـ المسؤول الغاصب:

وهو الذي يأخذ ما للناس من الضياع والدُّور والأراضي والمزارع بحيلة أو مواجهة، وفي موطأ الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول النبي ﷺ: (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار قالوا وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك، وإن كان قضيباً من أراك، وإن كان قضيباً من أراك، قالها ثلاث مرات) [2].

ووقع بين سعيد بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وامرأة شيء من خصومة في أرضٍ، فقال سعيد رضي الله عنه: " أتروني أخذت من حقها شيئاً؟ أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من أخذ من الأرض شبراً بغير حقه طوقه من سبع أرضين، ومن تولى مولى قوم بغير إذنهم فعليه لعنة الله، ومن اقتطع مال امرئ مسلم بيمين فلا بارك الله له فيها)[3].

وربما كان أثر ذلك قريباً عاجلاً يعود شرّه على البلاد والعباد بالسوء والقحط والنقص والمحق، ومما يُحْكَى في ذلك ما رواه مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما : أن مَلِكاً من الملوك خرج يسير في مملكته ، وهو

(١) راجع الموقفين في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور، ج٧ ص ٣٤١-٣٤٢.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ برقم ١٢١٥ ومسلم في صحيحه برقم ١٩٦..

(٣) أخرجه أحمد في المسند برقم ١٥٥٣،

مستخف من الناس ، فنزل على رجل له بقرة ، فراحت عليه تلك البقرة ، فحلبت ، فإذا حلابها مقدار ثلاثين بقرة . قال : فأعجب الملك بها ، وقال : ما صلحت هذه إلا أن تكون لي، فإذا صرت إلى موضعي، بعثت إليه فأخذتها . قال: وأقام إلى الغد، فغدت البقرة إلى مرعاها، ثم راحت فحلبت، فإذا حلابها قد نقص عن النصف ، وجاء حلاب خمس عشرة بقرة. قال : فدعا الملك ربها ، فقال له : هل رعت في غير مرعاها بالأمس، أو شربت في غير مشربها بالأمس ؟ قال : ما رعت في غير مرعاها بالأمس، ولا شربت في غير مشربها بالأمس . قال : ما بال لبنها قد نقص ؟ قال : يشبه أن يكون الملك قد هم بأخذها . فقال له الملك: وأنت من أين يعرفك الملك؟ فقال له : هو كما أقول لك ، فإن الملك إذا ظلم ، أو هم بظلم ذهبت البركة، أو قال : ارتفعت البركة . قال : فعاهد الملك ربه في نفسه أن لا يأخذها، ولا تكون له في ملك أبداً . قال : وأقام الغد ، ثم غدت البقرة إلى مرعاها ، فحلبت ، فإذا حلابها قد عاد إلى ما كان . قال : فدعا صاحبها ، فقال له: هل رعت بقرتك في غير مرعاها بالأمس ؟ أو شربت في غير مشربها بالأمس قال: لا . قال : فما بال لبنها قد عاد ؟ قال : يشبه أن يكون الملك قد هم بالعدل. قال: فاعتبر الملك، وقال: لا جرم ، ولأعدلن ، ولأكونن على أفضل من ذلك[1].

(١) مساوئ الأخلاق، للخرائطي، ج٢ ص ١٥٧ برقم ٦١٩.

٧ـ المسؤول الظلوم الغشوم:

وقد أخبر النبي ﷺ عن بؤسهما وفقرهما يوم القيامة حتى عن شفاعته عليه الصلاة والسلام، ففي حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول النبي ﷺ: (رَجُلانِ مِنْ أُمَّتِي لا يَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي: سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَآخَرُ غَالٍ فِي الدِّينِ مَارِقٌ مِنْهُ)[1].

قال عبد الملك بن قريب الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ: « سمعت أعرابياً يقول ، وقد ذكر جور عامل من العمال " أي مسؤول من المسؤولين" : « والله لئن عزوا بالظلم في الدنيا ، ليذلن بالعدل في الآخرة ، ولقليلٌ فَانٍ خيرٌ من كثير باق ورضوا، وإنما يكون العدم يوم يكون الندم »[2].

ومراده بقوله: " ولقليلٌ فانٍ خيرٌ من كثيرٍ باق ورضوا" أنّ آثار الظلم قليلة فانية، في جنب ما سيناله الظالم، أمّا الظلم فسيبقى على الظالم تبعته وسيكون عقابه شديداً أليماً وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون، وكما قال تعالى في أخْذ الظلمة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود : ١٠٢].

ومما يُحكَى في ذلك أنّ امرأة عجوزاً كانت لا تملك من الدنيا إلا مزرعة

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم ١٦٨٩٠، وفي الأوسط برقم ٦٥١، وقال الهيثمي في مجمع الزوائدج٢ ص ٣٧٤: رجال الكبير ثقات.

(٢) مساوئ الأخلاق للخرائطي، ج٢ ص ١٥٦ برقم ٦١٨.

ورثتها من زوجها، فكانت تقتات منها وتعيش على ريعها، فأخذ ابن الفرات الوزير من عمّال العباسيين أرضها، فجاءت إليه ودخلت عليه ترجوه أن تردّ إليها مزرعتها تقول له: يا ابن الفرات! أنا امرأة عجوز حسيرة كسيرة لا عائل لي، رُدّ إليّ مزرعتي، فأبَى، فقالت: سأدْعو الله عليك! فقال لها مستهتراً مستهزئاً: عليك بالثلث الأخير. فجلست في سجادتها شهراً كاملاً تدعو عليه تقول: "اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم ابن الفرات" فغضب عليه أمير المؤمنين فاستدعاه فحكم عليه بأنْ تقطع يده اليمنى يوم الجمعة على الأشهاد، وأن يقطع رأسه في الجمعة التالية، فلما استوى على القطع وهو مصلوب ذليل لا حيلة له، مرّت عليه وذكّرته بظلمه لها، وقالت:

إذا جارَ الوزيرُ وكاتباه ... وقاضي الأرض أجحف في القضاء

فويلٌ ثمّ ويلٌ ثمّ ويلٌ ... لقاضي الأرض من قاضي السماء

٨ـ المسؤول المحتجب عن حاجة رعيته:

وقد قال رسول الله ﷺ: (من ولي من أمر الناس شيئاً فاحتجب عن أولي الضعفة والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة)[1].

وفي رواية: (من ولي من أمر الناس ثم أغلق بابه دون المسكين والمظلوم وذي الحاجة؛ أغلق الله تبارك وتعالى أبواب رحمته دون حاجته وفقره أفقر ما

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند برقم ٢١٠٦١،

يكون إليها)[1].

ولهذا لما دخل أبو مريم الأزدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على معاوية رضوان الله عليه فقال له معاوية: ما أنعمنا بك أبا فلان، وهي كلمة تقولها العرب، فقال: حديث سمعته أخبرك به، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من ولاّه الله عز وجل شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم؛ احتجب الله عنه دون حاجته وخلته وفقره). فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس[2].

وليس المقصود أن يخالطهم على الدوام ولا يحتجب عنهم أبداً، فإن ذلك يضيع هيبة الحكم ويهدر وقته وجهده فيما لا نفع فيه للأمة.

قال أرسطو للإسكندر: إن التبذل يذهب ببهاء السلطان والاحتجاب الشديد يذهب الملك ويهلكه. قال: فكيف الرأي؟ قال: تكون غائباً كشاهد لرعيتك بالاستخبار لأمورها، والتفقّد لأحوالها[3].

ويُحكَى أن أبا جعفر المنصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ توقّف أياماً عن الخروج إلى الناس فقالوا: هو عليل، فكثروا القول فدخل عليه وزيره الربيع فقال: يا أمير المؤمنين، أدام الله لك في البقاء، إن الناس يقولون، قال: وما يقولون؟ قال: يقولون إنّ أمير المؤمنين عليلٌ، فأطرق مليّاً، ثم قال: يا ربيع مالنا وللعامة!، إنما تحتاج العامة

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ج٢ ص ٣٥٩: رواه أحمد وأبو يعلى.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم ٢٥٥٩. والطبراني في مسند الشاميين برقم ١٣٧٣، وصحح الألباني إسناد أبي داود.

(٣) انظر: بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق، ج١ ص ٨٦.

إلى ثلاث خلال، فإذا جعلت لهم، ما حاجتهم!: إذا أقيم لهم من ينظر في أحكامهم، وينصف بعضهم من بعض، وإذا أمنت سبيلهم حتى لا يلحقهم خوف في ليل ولا في نهار، وإذا سدت ثغورهم من أطرافها حتى لا يصل إليهم عدوهم، ونحن قد فعلنا ذلك كله، فما حاجتهم إلينا"[1].

٩ ـ المسؤول الشاقّ على أمته:

وهل هو قادر على مواجهة دعاء الرسول الكريم والنبي الرحيم ﷺ على أولئك الولاة الذين يكثرون من إدخال المشقة على الناس، بتضييق أحوالهم وإضناك معاشهم، ومحاصرة حرياتهم، ومضاعفة الضرائب والرسوم عليهم، وإعسار التعليم وإحصار فرصه في أبنائهم وغير ذلك، فإن الرسول ﷺ يدعو عليهم قائلاً: (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم فاشقُق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفُق به)[2].

١٠ ـ المسؤول المتعاظم في نفسه:

والمسؤول المتعاظم في نفسه؛ جاهل بما ينبغي أن يكون عليه، غافل عما يؤول إليه حاله من التعاظم والتكبّر على الناس، يحبّ أن يعظّمه الأتباع، ويقوم له الناس، ويقدمه قومه في كل موطن ومحفل ولقاء، ولا يرضى لو غفلوا عن

(١) المصدر السابق نفس الموضع.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٤٧٠٠ من حديث أمنا عائشة رضي الله عنها.

مقامه ومكانه، بل يطلب أن يتمثّل له الناس ويظهروا مكانته وعظمته، ظنّاً منه أنّ الولاية أو المنصب يرفع الشأن ويعلي المرء أبد الآبدين، ولا يدري أنّه من عاجلات الدنيا وفانياتها، وأنّ عاقبة ذلك إلى البوار والخسار المبين!! فيا سوء العاقبة ويا شرّ المعاقبة!!.

ولقد تنبّه صالحوا هذه الأمّة من الخلفاء والأمراء والأئمة إلى ذلك فقهروا أنفسهم وأقاموها مقامها من التواضع فتمانعت عن التعالي والتعاظم.

ومما يروى في ذلك؛ أنّ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج إلى عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن صفوان فقاما، أو قام أحدهما، فقال معاوية : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من سرَّه أن يمثِّل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار ».

وفي رواية، قال ابن مجلز رَحِمَهُ اللَّهُ: دخل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيتاً فيه عبد الله بن عامر ، وعبد الله بن الزبير ، فقام ابن عامر ، وثبت ابن الزبير، وكان أوزنهما . فقال معاوية : " اجلس يا ابن عامر ! فإنّ رسول الله ﷺ قال : « من سرَّه أن يمثِّل له الرجال قياماً، فليتبوأ مقعده من النار»[1].

ومن عجيب ما يُذكَّر به في هذا الموضع؛ ما حُكِيَ عن ملك النوبة آخر أيام الأمويين وأول أيام العباسيين، وذلك أنّ المنصور سمر ذات ليلة فذكر خلفاء بني أمية وسيرتهم وأنّ بعضهم لم يزل على استقامة حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين فكانت هممهم من عظيم شأن الملك وجلالة قدره قصدَ الشهوات وإيثار

(١) مساوئ الأخلاق، ج٢ ص ٣٤٦ـ٣٤٨. برقم ٧٨٤، ٧٨٧، ٧٨٨.

اللّذات والدخول في معاصي الله ﷻ ومساخطه جهلاً منهم باستدراج الله وأمناً لمكره، فسلبهم الله العزّ، ونقل عنهم النعمة. فقال له صالح بن عليّ. يا أمير المؤمنين إن عبد الله بن مروان لما دخل أرض النوبة هارباً فيمن معه، سأل ملك النوبة عنهم فأُخبر، فركب إلى عبد اللهّ فكلمه بكلام عجيب في هذا النحو لا أحفظه، وأزعجه عن بلده، فإنّ رأى أمير المؤمنين أنْ يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة ويسأله عن ذلك؟.

فأمر المنصور بإحضاره وسأله عن القصة، فقال: >يا أمير المؤمنين! قدمت أرض النوبة بأثاث سلم لي فافترشته بها، وأقمت ثلاثاً، فأتاني ملك النوبة وقد خبر أمرنا، فدخل عليّ رجل طوال أقنى حسن الوجه فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب، فقلت: ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا؟..

قال: لأني ملكٌ، وحقٌّ على كل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه.

ثم قال لي: لِمَ تشربون الخمر وهي محرَّمة عليكم في كتابكم ؟ قلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا لأن الملك زال عنا.

قال: فلِمَ تطأُون الزروع بدوابكم والفساد محرَّم عليكم ؟ قلت. يفعل ذلك عجم لنا.

قال: فلِمَ تلبسون الديباج والحرير وتستعملون الذهب والفضة وذلك محرَّم عليكم ؟ قلت: ذهب الملك منا وقل أنصارنا فانتصرنا بقومٍ من العجم دخلوا في ديننا، فلبسوا ذلك على الكُره منا.

قال: فأطرق مليَّاً وجعل يقلِّب يديه وينكت الأرض أو يقول: لأن عبيدنا وأتباعنا دخلوا في ديننا وزال الملك عنا!! يردّده مراراً ثم قال: ليس ذلك كما ذكرت، بل أنتم قومٌ استحللتم ما حُرَّم عليكم وركبتم ما عنه نهيتم، وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العزّ، وألبسكم الذل بذنوبكم، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها وأخاف أن يحلَّ بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم، وإنما الضيافة ثلاثة أيام، فتزودوا ما احتجتم إليه وارتحلوا عن بلدي. ففعلت ذلك»[1].

ولا ريب أنّ في ذلك العظة والذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

❐ ❐ ❐

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة، ص ٨٩.

المبحث الثالث

زهد أئمة الأمة في المناصب

إنّ من علم حقيقة ما ينتظر الولاة والمسؤولين من عظم المحاسبة ووقف على ما ينتظرهم من عظم المعاقبة؛ لا يتردد في الهروب عن توليها والزهد فيها، إلاّ من اضطر أو علم أنه سيأخذها بحقها وسيؤدي الذي عليه فيها.

ولقد كثُرت أعداد الأئمة وصالحي الأمة الذين زهدوا في المناصب العليا وهربوا من توليها في العهود المتتالية، ومن هؤلاء[1].

١ـ طُلِب أبو قِلَابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ للقضاء فلَحِق بالشام هَرَباً، فأقام حيناً ثم قَدِم عريش مصر؛ ولمّا قيل له في هروبه من تولي القضاء: لو أنك وَليتَ القضاءَ

(١) راجع بتوسع: عيون الأخبار لابن قتيبة، ج١ ص ٢٧٩، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ج١ ص ١١٢، تاريخ الرسل والملوك للطبري، ج٤ ص ٣٩٧،المنتظم لابن الجوزي، ج٢ ص ٤٩٧المقتنبس من تاريخ الأندلس لابن حيان ج١ ص ١٩، تاريخ دمشق لابن عساكر ج٣٥ ص٢٠٥، ج٣٧ ص ٢٥٢، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور، ج٦ ص ١٥٨، ذيل مرآة الزمان، لليونيني، ج٢ ص ٧١، ص١٠٧، المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء، ج٢ ص ٤٠، تاريخ الإسلام للذهبي، ج٣ ص ٩٩، ج٤ ص ٢٢، ج٥ ص ٢٤٤، ص٣٢٦، ج٦ ص ٤٦، ٢٠٥، ٢٨٧، ٤٣١، ٤٨٤، ج٧ص ٧٧، ج١٠ ص ٣٩٣، ج١٣ ص ١٤٤. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، لليافعي ج١ ص ١٦٨، البداية والنهاية لابن كثير ، ج٣ ص ٢١٨، أخبار القضاة للقاضي وكيع، ج١ ص ٢٢.

وعَدَلتَ بين الناس؛ رَجَونا لك في ذلك أجراً؛ فقال: "إذا وَقَع السابح في البحر فكم عسى أن يَسْبَح". ثم طُلب فهرب إلى عريش مصر، وكان ممن ابتلي في بدنه ودينه، فمات بالعريش سنة أربع ومئة، وقد ذهبت يداه ورجلاه وبصره، وهو مع ذلك حامد شاكر(١).

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج٤ ص ٤٧٤، تحقيق الأرناؤوط. وقول الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: " وقد ذهبت يداه ورجلاه وبصره وهو مع ذلك حامدٌ شاكر" لِمَا رواه ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الثقات (ج٥ ص ٣- ٥ رقم ٣٥٦١)في ترجمته للإمام أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي التابعي من عباد أهل البصرة وزهادهم يروي عن أنس بن مالك ومالك بن الحويرث وابن عباس وغيرهم، مات بالشام سنة أربع ومائة في ولاية يزيد بن عبد الملك قال ابن حبان رَحِمَهُ اللهُ: " حدثني بقصة موته محمد بن المنذر بن سعيد قال ثنا يعقوب بن إسحاق بن الجراح قال ثنا الفضل بن عيسى عن بقية بن الوليد قال ثنا الأوزاعي عن عبد الله بن محمد قال: خرجت إلى ساحل البحر مرابطاً، وكان رباطنا يومئذ عريش مصر، قال: فلما انتهيت إلى الساحل؛ فإذا أنا ببطيحة وفى البطيحة خيمة فيها رجل قد ذهب يداه ورجلاه وثقل سمعه وبصره وما له من جارحة تنفعه إلا لسانه وهو يقول: "اللهم أوزعنى أن أحمدك حمداً أكافىء به شكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وفضلتنى على كثيرٍ ممن خلقت تفضيلاً". قال الأوزاعي قال عبد الله، قلت: والله لآتين هذا الرجل ولأسألنه أنَّى له هذا الكلام فهمٌ أم علمٌ أم إلهامٌ ألهم. فأتيت الرجل فسلمت عليه فقلت: سمعتك وأنت تقول: اللهم أوزعنى أن أحمدك حمداً أكافىء به شكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وفضلتنى على كثير ممن خلقت تفضيلاً؛ فأيّ نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها؟ وأي فضيلة تفضل بها عليك تشكره عليها؟ قال: وما ترى ما صنع ربي؟ والله لو أرسل السماء علي ناراً فأحرقتني! وأمر الجبال فدمّرتني! وأمر البحار فغرّقتني! وأمر الأرض فبلعتني! ما ازددت لربي إلا شكراً لما أنعم عليّ من لساني

هذا، ولكن يا عبد الله إذ أتيتني لي إليك حاجة قد تراني على أي حالة أنا أنا لست أقدر لنفسي على ضرٍ ولا نفعٍ، ولقد كان معي بني لي يتعاهدني في وقت صلاتي فيوضيني وإذا جعت أطعمني وإذا عطشت سقاني، ولقد فقدته منذ ثلاثة أيام فتحسسه لي رحمك الله، فقلت: والله ما مشى خلق في حاجة خلق كان أعظم عند الله أجراً ممن يمشي في حاجة مثلك، فمضيت في طلب الغلام، فما مضيت غير بعيد حتى صرت بين كثبان من الرمل، فإذا أنا بالغلام قد افترسه سبع، وأكل لحمه فاسترجعت، وقلت: أنَّى لي وجه رقيق آتي به الرجل، فبينما أنا مقبلٌ نحوه إذ خطر على قلبي ذكر أيوب النبي ﷺ فلما أتيته سلمت عليه فردّ عليّ السلام، فقال: ألست بصاحبي؟ قلت: بلى. قال: ما فعلت في حاجتي؟ فقلت: أنت أكرم على الله أم أيوب النبي؟ قال: بل أيوب النبي. قلت: هل علمت ما صنع به ربه؟ أليس قد ابتلاه بماله وآله وولده؟ قال: بلى. قلت: فكيف وجده؟ قال: وجده صابراً شاكراً حامداً. قلت: لم يرض منه ذلك حتى أوحش من أقربائه وأحبائه؟ قال نعم. قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: وجده صابراً شاكراً حامداً. قلت: فلم يرض منه بذلك حتى صيّره عرضاً لمارّ الطريق هل علمت؟ قال: نعم. قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: صابراً شاكراً حامداً. قال: أوجز رحمك الله. قلت له: إن الغلام الذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كثبان الرمل وقد افترسه سبع فأكل لحمه، فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر. فقال المبتلى: الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقاً يعصيه فيعذبه بالنار. ثم استرجع وشهق شهقة فمات. فقلت: إنا لله وإنا اليه راجعون، عظمت مصيبتي، رجل مثل هذا إن تركته أكلته السباع، وإن قعدت لم أقدر على ضر ولا نفع. فسجيته بشملة كانت عليه وقعدت عند رأسه باكياً. فبينما أنا قاعد إذ تهجّم على أربعة رجال فقالوا: يا عبد الله ما حالك وما قصتك؟ فقصصت عليهم قصتي وقصته، فقالوا: لي اكشف لنا عن وجهه فعسى أن نعرفه فكشفت عن وجهه، فانكبّ القوم عليه يقبلون عينيه مرة ويديه أخرى ويقولون: بأبي عين طال ما غضت عن محارم الله وبأبي وجسمه طال ما كنت ساجداً والناس نيام، فقلت: من هذا يرحمكم الله؟ فقالوا: هذا أبو

أي: كم يثبت على تحري الحقّ والعدل؟، وكم يوفّق في ذلك؟ لطالما ـ قصر الأمد أو استطال ـ تتأمّر عليه النفس الأمّارة بالسوء فينقلب من عادل إلى ظالم، ومن عدل إلى جائر، ومن ورِعٍ إلى متساهل، ومن حريص على الآخرة إلى متشبث بالعاجلة، ومن طالب حقٍّ إلى طالب دنيا، ومن مبتغٍ رضى الله العالي إلى مرتجٍ رضا السلطان الدني، فإذا وُرِّط في الولاية وانغمس في مغرياتها ووقع في زينة المناصب !! فكم عسى له أن يثبت؟؟!!!.

٢ـ وكان مكحول رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ صاحب ابن عباس رضي الله عنهما ــ يقول: «لو خيرت بين القضاء وبين ضرب رقبتي لأخترت ضرب رقبتي».

٣ـ ـ و هذا عمير بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، كان من زهّاد العمّال، ولي لعمر بن الخطاب رضوان الله عليه سنةً على حمص، ثم أشخصه، فقدم عليه بالمدينة، وجدّد عهده، فامتنع، وأبى أن يلي له، وكان عمر يقول: "وددت أن لي رجلاً مثل عمير أستعين به على أعمال المسلمين". ومع ذلك لم يلزمه بما أمره وطلبه.

٤ـ وهذا عبد الله بن عتبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين أرسل إليه الأمير رجلاً من أعوانه

قلابه الجرمي صاحب ابن عباس م لقد كان شديد الحبّ لله وللنبي ﷺ، فغسلناه وكفناه بأثواب كانت معنا وصلينا عليه ودفناه، فانصرف القوم وانصرفت إلى رباطي، فلما أن جن عليّ الليل وضعت رأسي فرأيته فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة وعليه حلتان من حلل الجنة، وهو يتلو الوحي ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ [الرعد : ٢٤] فقلت: ألست بصاحبي؟ قال: بلى. قلت: أنَّى لك هذا؟ قال: إن لله درجات لا تنال إلا بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء مع خشية الله عز و جل في السر والعلانية" اهـ.

يطلب إليه أن يتولَّى القضاء، وكان بين يديه كانون فيه نار، فقال للرجل:" ضع لي إصبعك في هذه النار"، فقال الرجل:" سبحان الله ! تأمرني أن أضع لك إصبعي في النار؟ فقال له ابن عبتة: " أتبخل علي بإصبع من أصابعك في نار الدنيا، وتسألني أن أضع جسدي كله في نار جهنم !".

٥ـ وأراد المنصور الإمام أبا حنيفة النعمان رحمهما الله على القضاء فامتنع، فحلف لا بد أن يتولى له، وحلف أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألا يفعل، فولاه القيام ببناء مدينة المنصور وضرب اللَّبِن وعدّها فقبل ليخرج من يمينه.وقد كان البناء بين كل باب من أبواب المدينة إلى الباب الآخر ميل، في كل ساف من أسواف البناء مائة ألف لبنة واثنتان وستون ألف لبنة، فلما بني الثلث جُعل في الساف مائة ألف لبنة وخمسين ألف لبنة، فلما جاوزوا الثلثين صُيِّر في البناء مائة ألف لبنة وأربعين ألفاً إلى أعلى. وذكر أبو بكر بن ثابت رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ارتفاع هذا السور خمسة وثلاثون ذراعاً، وعرضه من أرضه نحو من عشرين ذراعاً، وجعل لها أربعة أبواب. فقبل أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضرب كل ذلك من اللبن وعدها، على المشقة الظاهرة حتى لا يتولى القضاء.

فقال: والله ما أنا بمأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب، فلا أصلح لذلك، فقال: كذبت بل تصلح، فقال: كيف يحل لك أن تولِّي من يكذب؟ وقال أبو بكر الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقيل: إنه ولي القضاء، وقضى قضية واحدة وبقي يومين، ثم اشتكى ستة أيام ومات. ثم أصرّ عليه المنصور بعد ذلك فلم يقبل

فضُرب وحُبس ومات في السجن. كما يروي الفقيه أبو عبد الله الصيمري رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وسبب حبسه ما دار بينهما، فلما أعجزه الإمامُ الحجة حبسه، وذلك لما دعاه المنصور إلى القضاء فامتنع، قال له: أترغب عما نحن فيه! فقال: لا أصلح، قال: كذبت، قال أبو حنيفة: فقد حكم أمير المؤمنين عليَّ أني لا أصلح، فإن كنت كاذباً فلا أصلح، وإن كنت صادقاً فقد أخبرتكم أني لا أصلح، فحبسه.

٦ـ الإمام الليث بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراده المنصور لإمرة مصر،فامتنع.

٧ـ وأريد الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على القضاء في أيام يزيد بن الوليد، فامتنع.

٨ـ وكان عبد الرحمن الداخل رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد عزم على أن يولي القضاء رأس الفقهاء يحيى بن يحيى إمام الفقهاء بالأندلس، فامتنع رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٩ـ ولما تقلد الخاقاني الوزارة وجّه إلى الإمام أبي جعفر الطبري شيخ المفسرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمال كثير فامتنع من قبوله، فعرض عليه القضاء فامتنع، فعرض عليه المظالم، فأبى، فعاتبه أصحابه وقالوا: لك في هذا ثواب وتحيى سنة قد دُرِسَتْ، فطمعوا في قبوله المظالم، فباكروه ليركب معهم في قبول ذلك فانتهرهم وقال: "كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه" ولامهم، فانصرفوا من عنده خجلين.

١٠ـ وهذا أبو بكر الأبهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيخ المالكية، كان معظماً عند سائر

علماء وقته لا يشهد محضراً إلا كان هو المقدم فيه، وإذا جلس قاضي القضاة أبو الحسن بن أم شيبان أقعده عن يمينه والخلق كلهم من القضاة والشهود والفقهاء وغيرهم دونه، وسئل أن يلي القضاء فامتنع، فاستشير في من يصلح لذلك فقال: أبو بكر أحمد بن علي الرازي، وكان الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تزيد حاله على منزلة الرهبان في العبادة فأريد للقضاء فامتنع رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأشار بأن يولى الأبهري، فلما لم يجب واحد منهما إلى القضاء؛ ولي غيرهما.

١١ـ وهذا وكيع بن الجراح رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيخ الأئمة الكبار الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله، عرض عليه القضاء فامتنع عنه. وكان حفص بن غياث النخعي صديقه، فلما ولي القضاء لم يكلمه وكيع حتى مات.

١٢ـ وهذا منصور بن المعتمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عرف أنه أربعين سنة قام ليلها وصام نهارها، وكان يبكي الليل، فتقول له أمه: يا بني، قتلت قتيلاً؟ فيقول: أنا أعلم ما صنعت بنفسي، فإذا أصبح كحل عينيه ودهن رأسه وبرق شفتيه خرج إلى الناس فأخذه ذات يوم يوسف بن عمر عامل الكوفة يريده على القضاء، فامتنع، فأجبره عليه، فجيء بالقيد ليقيد، فجاءه خصمان، فقعدا بين يديه، فلم يسألهما ولم يكلمهما، فقيل ليوسف بن عمر: "إنك لو نثرت لحمه لم يل لك قضاء"، فخلى عنه وتركه.

١٣ـ عبد الله بن إدريس بن يزيد بن عبد الرحمن بن الأسود، أبو محمد الأودي، الكوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. من شيوخ عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل ويحيى

ابن معين رحمهم الله، وكان ثقة عالماً زاهداً ورعاً، وكان أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول فيه: نسيج وحده. أقدمه الرشيد إلى بغداد ليوليه قضاء الكوفة، فامتنع وعاد إلى الكوفة، وأقام بها إلى أن مات في هذه السنة.

١٤ـ وأحضر المأمونُ موسى بن سليمان ومعلى الرازي فعرض على موسى القضاء فامتنع، فأقبل على معلى فقال له مثل ذلك، قال: لا أصلح، قال: ولم؟ قال: إني رجل، أداين، فأبيت مطلوباً وطالباً، قال: نأمر بقضاء دينك وتتقاضى ديونك، فمَنْ أعطاك قبلنا منه ومَنْ لم يعطك عوضناك ما لك عليه، قال: ففيَّ شكوك في الحكم، وفي ذلك تلف أموال الناس، قال: يحضر مجلسك أهل الدين إخوانك، فما شككت فيه سألتهم عنه، وما صحَّ عندك أمضيته. قال: يا سبحان الله، أنا أرتاد رجلاً أوصي إليه من أربعين سنة، ما أجد من أوصي إليه؛ فمن أين أجد من يعينني على حقوق الله الواجبة حتى ائتمنه على ذلك؟ فأعفاه المأمون رحمهم الله تعالى.

١٥ـ وهذا يحيى بن يحيى النيسابوري كان في مجلس الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فانكسر قلمه، فناوله المأمون ـ وكان ممن يحضر مجلس مالك ـ قلماً من ذهب أو من مقلمة من ذهب، فلم يقبل، فقال له المأمون: ما اسمك؟ قال: يحيى بن يحيى النيسابوري قال: تعرفني؟ قال: نعم، أنت المأمون ابن أمير المؤمنين، قال: فكتب المأمون على ظهر جزوة: "ناولت يحيى بن يحيى النيسابوري قلماً في مجلس مالك فلم يقبله".

فلما أفضت الخلافة إلى المأمون بعث إلى عامله بنيسابور يأمره أن يولِّي يحيى بن يحيى القضاء، فبعث إليه يستدعيه، فقال بعض الناس له: تمتنع من الحضور، وليته أذن للرسول، فأنفذ إليه كتاب المأمون، فقرئ عليه، فامتنع من القضاء، فرد إليه ثانياً، وقال: إن أمير المؤمنين يأمرك بشيء وأنت من رعيته، وتأبى عليه؟، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قل لأمير المؤمنين: ناولتني قلماً وأنا شاب فلم أقبله، أفتجبرني الآن على القضاء وأنا شيخ؟". فرفع الخبر إلى المأمون، فقال المأمون: "قد علمت امتناعه، ولكن ولِّ القضاء رجلاً يختاره، فبعث إليه العامل في ذلك، فاختار رجلاً فولي القضاء، ودخل على يحيى وعليه سواد فضم يحيى فرشاً كان جالساً عليه كراهية أن يجمعه وإياه، فقال: أيها الشيخ، ألم تخترني؟ قال: "إنما قلت اختاروه، وما قلت لك تقلد القضاء".

١٦ـ أمر علي بن عيسى وزير المقتدر بالله نازوك صاحب البلد أن يطلب الشيخ أبا علي بن خيران الفقيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتى يعرض عليه قضاء القضاة فاستتر، فوكل بباب داره رجاله بضعة عشر يوماً حتى احتاج إلى الماء فلم يقدر عليه إلا من عند الجيران، فبلغ الوزير ذلك فأمر بإزالة التوكيل عنه، وقال في مجلسه والناس حضور: ما أردنا بالشيخ أبي علي بن خيران إلا خيراً، أردنا أن نعلم أن في مملكتنا رجلاً يعرض عليه قضاء القضاة شرقاً وغرباً وهو لا يقبل.

١٧ـ أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان إمام أصحاب أبي حنيفة ومدرسهم ومفتيهم، ما شهد الناس مثله في حسن الفتوى والإصابة فيها،

وحسن التدريس، وقد دعي إلى ولاية الحكم مراراً فامتنع منه.

١٨ـ أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد بن صالح الفقيه المالكي،سئل أن يلي قضاء القضاة فامتنع رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

١٩ـ أبو الفضل المقدسي عبد الملك بن ابراهيم بن أحمد الفرضي المقرئ، من أهل همدان، كان فقيهاً فاضلاً على مذهب الشافعي، واماماً في الفرائض والحساب وقسمة التركات، واليه مرجوع الناس في ذلك وعليه معتمدهم، وكان من الصلاح والعبادة والنسك والزهد والورع والعفة والنزاهة على طريقة اشتهر بها وعرفها الخاص والعام، وأريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن يلي قضاء القضاة فامتنع.

٢٠ـ أبو الثناء برهان الدين المراغي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. كان إماماً عالماً عاملاً، كثير العبادة والتقوى، عليه آثار الصلاح ظاهرة، ولي تدريس المدرسة الفلكية بدمشق إلى حين وفاته، وعرض عليه أن يكون قاضي القضاة بالشام، فامتنع قنعاً وورعاً، وعرض عليه أن يكون قاضي القضاة بالشام، فامتنع قنعاً وورعاً، وعرض عليه أن يكون شيخ الشيوخ بالشام فامتنع أيضاً.

٢١ـ سعيد بن علي بن سعيد أبو محمد رشيد الدين البصراوي الحنفي مدرس الشبلية. كان إماماً عالماً فاضلاً، كثير الديانة والورع، عرض عليه القضاء غير مرة فامتنع رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

٢٢ـ الفقيه الزاهد شرف الدين فضل بن عيسى بن قنديل العجلوني

الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان له اشتغال وفهم ويد في التعبير، وتعفف وقوة نفس، عرض عليه خزن المصحف العثماني فامتنع، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

٢٣ـ إبراهيم بن رستم، أبو بكر المروزي العقبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أحد الأئمة، من شيوخ أحمد بن حنبل، ويوسف القطان، كان نبيلاً جليلاً، قرَّبه المأمون وعرض عليه القضاء فامتنع.

٢٤ـ أحمد بن موسى بن مخلد. الفقيه أبو العباس الغافقي المالكي. من تلاميذ سحنون النجباء، كان ذا دين وورع. طلب للقضاء فامتنع.

٢٥ـ أحمد بن محمد أبو جعفر الفهري الأندلسي، طلب لقضاء القيروان فامتنع رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢٦ـ أبو الخطاب العباس بن أحمد بن محمد بن الفرات، كان صدراً نبيلاً أُريد على الوزارة فامتنع تديناً رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

٢٧ـ أبو العباس إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن ميكال الأديب شيخ خراسان ووجهها وعينها في زمانه، من ولد يزدجرد بن بهرام جور ملك الفرس. استعمل المقتدر أباه على الأهواز، وقد عرضت عليه ولايات جليلة فامتنع.

٢٨ـ أبو عبد الله بن أبي ذهل الضبي الهروي شيخ المحدثين الأئمة الكبار: الدارقطني، وأبي الحسين الحجاجي، والحاكم أبي عبد الله، وأبي أيوب القراب، كان يعاشر العلماء والصالحين، وله أفاضل كثيرة عليهم، وكان يضرب له الدينار ديناراً ونصفاً، فيتصدق بالدنانير التي من هذا الوزن، ويقول: إني لأفرح إذا

ناولت فقيراً كاغدة فيتوهم أنه فضة، فيفتحه فيفرح، ثم يزن فيفرح ثانياً. وقد قال: ما مست يدي ديناراً ولا درهماً، نحو ثلاثين سنة. قال عنه تلميذه الحافظ الحاكم صاحب المستدرك: قد صحبت أبا عبد الله بن أبي ذهل حضراً وسفراً، فما رأيت أحسن وضوءاً ولا صلاة منه، ولا رأيت في مشايخنا أحسن تضرعاً منه وابتهالاً، ولقد سألت الوالي عن أعشار غلات أبي عبد الله كم تبلغ؟ قال: ربما زادت على ألف حمل. وحدثني أبو أحمد الكاتب أن النسخة التي كانت عنده بأسماء من يقوتهم أبو عبد الله بهراة يزيد على خمسة آلاف بيت!!.. عرضت عليه ولايات جليلة فامتنع رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢٩ـ عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن، أبو المطرف الأنصاري القنازعي القرطبي، الفقيه المالكي عرض عليه السلطان الشورى فامتنع، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣٠ـ أبو بكر الأنصاري خلف بن أحمد بن خلف الرحوي من علماء طليطلة،كان إماماً ورعاً، دُعي إلى قضاء طليطلة فامتنع، وهرب، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣١ـ الإمام كمال الدين المغربي الشافعي، إسحاق بن أحمد الشيخ المفتي الفقيه، أحد الفقهاء الكبار المشهورين بالعلم والعمل.كان عالماً زاهداً متواضعاً مؤثراً، وكان متصدياً للإفادة والفتوى، وكان كبير القدر في الخير والصلاح، متين الورع، عرضت عليه مناصب فامتنع رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣٢ـ عز الدين أبو عبد الله الأنصاري الحلبي الكاتب، محمد بن إبراهيم بن

علي بن محمد بن شداد .الرئيس،كان أديباً فاضلاً، حسن المحاضرة. كان من خواص السلطان الملك الناصر يوسف ذهب في الرسلية عنه إلى هولاكو وإلى غيره ، وكان ذا مكانةٍ وحرمةٍ عند الملك الظاهر وولده والملك المنصور، وله توصُّل ومداخله، فيه تودُّد ومروءة ومسارعة لقضاء حوائج الناس، وقد عُرِضت عليه الوزارة زمن السعيد فامتنع رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣٣ـ كمال الدين بن طلحة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان فاضلاً عالماً طُلب أن يلي الوزارة فامتنع من ذلك، وكان هذا من التأييد.

ونكتفي بالتمثيل بهؤلاء الأعلام الأربعة والثلاثين، وغيرهم كثيرٌ، رحمة الله تعالى عليهم أجمعين.

مَنْ قَبِلَ الولاية بحقها:

وهناك جماعةٌ أخرى من أهل الفضل والعلم والتقدّم قبلوا الولايات مكرهين مضطرين، أو على ثقة من أنفسهم أنهم سيأخذونها بحقها وسيؤدون الذي عليهم فيها، وهذا مطلوب أن يكونوه، إذ لا بدّ لهذه الولايات والمناصب من ولاة، وهو مما لا يتم الواجب إلا به.

ونمثّل لهؤلاء بمثالين، لأنّ من يقبل الولاية دائماً كثيرون، ومن يسعى إليها في الناس أكثر، ولكن من يعرف حقها ويأخذها بشروطها ليس كما نريد ونرجو.

منهم: الإمام سعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت رَحِمَهُ ٱللَّهُ شهد له الإمام

مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالصلاح والفضل وقال فيه: " كان فاضلاً عابداً كثير الصلاة، فأريد على قضاء المدينة فامتنع، فكلمه إخوانه من الفقهاء، وقالوا له: القضية تقضيها بحق أفضل من كذا وكذا من التطوع، فلم يُجِبْ، فأُكره على القضاء، فكان أول شيء قضى به على عبد الواحد بن عبد الله والي المدينة، وأخرج من يده مالاً عظيماً لفقراء أهل المدينة، فقسمه فيهم، وعُزل عبد الواحد بذلك السبب، فقال لسعيد بن سليمان إخوانُهُ: "قضيتك هذه خير لك من مال عظيم لو تصدقت به من عندك"[1].

ومنهم: جميل بن كريب المعافري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أهل إفريقية، كان من أهل العلم والدين. سأله الأمير عبد الرحمن بن حبيب الفهري تولية القضاء فامتنع، وتمارض وشرب ماء التبن حتى اصفر لونه، فبعث إليه الأمير عبد الرحمن فقال له: "إنما أردت أن تكون عوناً على الأمر، وأقلدك أمر المسلمين فتحكم عليَّ وعلىَ من دوني بما تراه من الحق،فاتق الله في الناس". فقال له جميل: "آلله إنك لتفعل؟" فقال: "آلله،" فقَبِلَ، فما مرَّ إلا أيام حتى أتاه رجل يدَّعِي علَى الأمير عبد الرحمن بن حبيب دَعْوَى، فمضى معه إلى باب دار الإمارة، فقال للحاجب: أعلم الأمير بمكاني، وأن هذا يدعي عليه بدعوى. فدخل فأعلمه. وكان عبد الرحمن من أغنى من ولي إفريقية، فلبس رداءً ونعلين وخرج إليه، فأقعده جميل مقعد الخصم

(١) تاريخ ابن عساكر ، ج٣٧ ص ٢٥٣.

مع صاحبه، ثم نظر بينهما، فأنصفه عبد الرحمن[1].

وفي هذا الكفاية والغناء لمن أراد أن يعتبر أو يتعظ، والله المستعان، وهو الهادي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

❐ ❐ ❐

(١) المنتظم، لابن الجوزي ج٣ ص ٣٩١.

خاتمة ناصحة

أحسن الله خاتمتنا جميعاً

في آخر هذه الرسالة الواعظة، نحب أن نحسن خاتمتها بسبع نصائح صالحة، نقدِّمها لمن ابتلاه الله بولاية من الولايات ومنصب من المناصب، داعين الله له سلامة العقبى وسعادة الأخرى وصلاح الأولى، فنقول له:

١ـ كن خادم قومك ورعيتك:

كثيرٌ من المسؤولين وأصحاب المناصب العليا اليوم يستخدمون الرعية في مصالحهم ويسخّرونهم لتحقيق مآربهم، وقضاء أمورهم وإقامة دنياهم؛ مع أنه إنما وُلِّي عليهم ليرعى مصالحهم ويدبر شأنهم ويدير أمرهم، فقلبوا حقيقة الولاية من الرعاية إلى الوصاية، ومن خدمتهم إلى استعبادهم.

لذلك فالواجب على المسؤول المسلم أن يكون هو خادم قومه ورعيته، وقد كان صالحو الأمة من خلفائها وأمرائها خُدَّاماً للأمة والرعية لا مخدِّمين للرعية.

قدم الأحنف بن قيس على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليهما في وفد من العراق، قدموا عليه في يوم صائف شديد الحرِّ وهو متحجز بعباءة يهنأ بعيراً من إبل الصدقة، فقال: « يا أحنف! ضع ثيابك وهلم أَعِنْ أمير المؤمنين على هذا البعير، فإنه من إبل الصدقة فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين »، فقال رجل: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، فهلاَّ تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك

هذا ؟ فقال عمر رضي الله عنه: «يا ابن فلانة! وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف بن قيس هذا ؟، إنه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين، يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة»[1].

فالسبيل إلى إعزاز الأمة والعودة بها إلى سيرتها الأولى؛ أن نسير بهم سيرة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه فيرى الحاكم والوزير والوالي والقاضي والمحافظ والمدير والرئيس والملك والسلطان والأمير أنه في حقيقته عبدٌ للمسلمين خادمٌ لهم، طالما ولي من أمرهم شيئاً، فنهمس في أذن كل مسؤول من هؤلاء ونقول له: " كن خادم قومك ورعيتك! فإن خادم القوم سيدهم"[2].

٢ـ كن واحداً منهم:

لا تتميّز عنهم بشيء لا بلبس ولا بهيئة ولا بمركب ولا بموكب، كن واحداً منهم، فخير الوالي من كان منهم، وخير المسؤول من خرج من بينهم، يعيش كما يعيشون يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون وينام على ما ينامون.

فالله تعالى أرسل لكل قوم رسولاً من أنفسهم، يعيشون كما يعيش أقوامهم يأكلون الطعام معهم ويمشون الأسواق بينهم..

---

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، للمتقي الهندي، ج٥ ص ٧٦١.

(٢) مأخوذ من جزء من حديث مروي عن النبي ﷺ أنه قال: (خادم القوم سيدهم وساقيهم آخرهم شراباً) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ولا أعرف درجته، انظر جزء بيبي برقم ٨٨ ص ٦٩.

وخير البشر أجمعين صلوات ربي وسلامه عليه ما كان يُعرف من بين أصحابه، إذ لم يكن يتميّز بشيء عنهم، ولكن كان أصحابه يعرفون قدره عليه الصلاة والسلام.

ولما أرسل المقوقس من يستخبر له حال جيش المسلمين الذين يحاصرون بلاده رجع إليه رسوله قال له المقوقس: كيف رأيتموهم؟ قالوا: «رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نَهمة، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على رُكبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد: وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم. فقال عند ذلك المقوقس على فراسة وحكمة: «والذي يُحْلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ولن يقوى على قتالهم أحد »[1].

٣ـ لا تقف إلا مواقف إرضاء المؤمنين وإغاظة الكافرين:

فالمسؤول المسلم مطالب أن يسعى لتحصيل الرضاءات الثلاثة: رضا الله ورسوله والمؤمنين، فإن من أعظم مقاصد الأعمال تحصيل تلك الرضاءات الثلاثة، قال تعالى ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ وهي أعمال المؤمن الدنيوية لا الأخروية بدليل تمام الآية ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، ج١ ص٣ ، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ج٢ ص ٧.

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[التوبة : ١٠٥].

ولابد أن يكون مطلوب مواقفه كلها إغاظة الكافرين وقد قال تعالى ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [التوبة : ١٢٠].

والمسؤول المسلم قدوته وأسوته قادة الأمم وخيار البشر من أولي العزم من الرسل، فليكن قدوته موسى عليه السلام وكان شعاره وقراره: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [القصص : ١٧]. وليكن قدوته محمد ﷺ وقد جاءه التوجيه الإلهي ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [القصص : ٨٦] ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٥].

فلا يليق بالمسؤول المسلم أن يكون غافلاً عما يرضي المؤمنين وعما يغيظ الكافرين، فيقف مواقف تغضب المؤمنين وترضي الكافرين، وتغيظ المؤمنين بدلاً من أن تغيظ الكافرين. فواجبٌ عليه إذنْ أن ينتبه فلا يقف إلا مواقف إرضاء المؤمنين وإغاظة الكافرين، بتصريحه، وتقريره، وبسلوكه، وبأفعاله وأقواله وقراراته وشفاعاته وغير ذلك.

وهنا موقف وزير لا يرضاه الله ولا رسوله ولا المؤمنون الصالحون، موقفٌ يسيء إلى أخلاق المسلمين حكاماً ومحكومين، بينما يقف يهوديٌّ عدوٌّ للملّة موقفاً خيراً من موقفه. إنه موقف الوزير أبي البسام في خلافة الحكم بن هشام من الإمام طالوت بن عبد الجبار المعافري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان ممن أخذ عن مالك بن أنس

ونظرائه، من أهل العلم، وشهر بالصلاح والفضل.

وقصته:

أنّه كان ممن شارك في ثورة أهل قرطبة على أميرهم الحكم بن هشام. فظفر بهم الحكم، فاستخفى خوفاً على نفسه عند يهودي من جيرانه، وثق به. فتقبله أحسن قبول. ومكث عنده بأفضل حال سنة كاملة، حتى طفيت الثائرة، فأراد طالوت الخروج على أنه أثقل على اليهودي، فقال له: " قد عزمت على الخروج، فإن بيني وبين أبي البسّام الوزير صلة، وقد قرأ عليَّ فلي عليه حق التعليم، فعسى أن يشفع لي عند الحكم فيؤمنني"فقال اليهودي: " يا مولاي لا تفعل فما آمنهم عليك" وأحب بقاءه عنده يحلف له أنه لو أقام عنده بقية عمره لسرّ بذلك، فلجّ وقصد الوزير خفية بين العشائين فأظهر له القبول، وسأله أين كان قبل؟ فأخبره، فصوّب رأيه في انتقاله إليه، ووعده الشفاعة له، وبادر بالركوب في وقته، وقد وكل به من يحرسه، فقال للأمير: "ما رأيك في عجل سمين عاكف على مذودة منذ سنة يلذ مطعمه، هذا طالوت رأس المنافقين عندي. قد أظفرك الله به. قال: قم فعجّل به، ووثب فجلس على كرسي بباب مجلسه، يتوقّد غيظاً عليه. فلم يلبث أن أدخل طالوت عليه، فجعل يتقرعه بذنوبه، ويقول: "طالوت الحمد الله الذي أظفرني بك، ويحك أخبرني لو أن أباك أو ابنك قعد مقعدي بهذا القصر، أكانا يزيدانك من البر والإكرام على ما فعلته أنا بك؟ هل رددت قط حاجة لك أو لغيرك؟ ألم أشاركك في حلوك ومرِّك؟ ألم أعدك مرات في محلاتك؟

ألم أشاركك في حزنك على زوجتك؟ ومشيت في جنازتها راجلاً إلى مقبرة الربض؟ وانصرفت معك كذلك إلى منزلك؟ وغير شيء من التوقير فعلته بك؟ ما حملك على ما قابلت به إجمالي؟ ولم ترض مني إلا بخلع سلطاني، وسعي لسفك دمي، واستباحة حرمتي؟" فقال له طالوت: "ما أجد لي في هذا الوقت مقالاً أنجى من صدقك به. أبغضتك لله وحده. فلم ينفعك عندي كل ما صنعته عوض دنياك". فسري عن الأمير وسكن غيظه، ومُلِيء عليه رقة. فقال: "والله لقد أحضرتك، وما في الدنيا عذاب إلا وقد عرضته اختار بعضه لك، وقد حيل بيني وبينك، فأنا أعلمك أن الذي أبغضتني له، صرفني عنك، فانصرف في أمان الله تعالى، وانصرف حيث شئت، وارفع إليّ حاجتك، فلم تعدم فيّ براً. فيا ليت الذي كان لم يكن". فقال له طالوت: " صدقت، فلو لم يكن كان خيراً لك، ولا مرد لأمر الله". وسأل الحكم طالوتاً بعد أن أمَّنه: :" كيف ظفر بك صاحبك الوزير أبو البسام؟ قال: "أنا أظفرته بنفسي عن ثقة، لوصلة بيني وبينه، ليشفع لي عندك، فكان منه ما رأيت". فقال له: "فأين كان مثواك قبل؟" فأخبره بخبر اليهودي، فقال الحكم للوزير: سوءةً لك! رجل في أعداء الملة حفظ لهذا الشيخ محله في الدين والعلم، فأخطر بنفسه فيه، وناقضت أنت ذلك وهو من خيار أهل ملّتك، وأردت أن تزيدنا فيما نحن قائمون عليه، في سوء الانتقام؟. أخرج عني قبّحك الله، لا أرانا الله في القيامة وجهه إن رأينا لك وجهاً". فضيق أرزاقه، وطويت في بيت الوزارة فراشه. فسقط آخر الدهر، وذهب عقبه وما زال في

ارتكاس وخمول وفاقة وذلّ. وكتب الحكم لليهودي بإسقاط الجزية فيما ملك، وزاد في إحسانه حتى أسلم اليهودي[1].

فمثل هذا الموقف لا يُرضي الله ولا رسوله ولا المؤمنين، كيف وقد أسخط اليهودي، ومن بعده أسخط الأمير الغاضب على طالوت الخارج عليه؟. وما كل ذلك إلا للتزلف والتملق للأمير على حساب الدين والمعروف والإحسان وواجبات الشرع وملزماته، ونعوذ بالله أن نكون من الغافلين الجاهلين الظالمين.

٤ـ انظر كيف رضا المساكين عنك:

ليست مهمة المسؤول المسلم أبداً الاجتهاد في إرضاء الخاصة من الأغنياء والكبراء والزعماء وأصحاب الجاه والشرف!! بل مهمته الحميدة ورسالته السعيدة إدخال السرور على قلوب المساكين، مهمته الأهم إرضاء المساكين في المجتمع، ولذلك مقياس نجاح المسؤول المسلم في ولايته رضا المساكين عنه، وكذلك كانت مهمة الأنبياء صلوات الله على نبينا وسائر النبيين.

۞ قال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بلغني أن نبياً من الأنبياء قال: يا رب! كيف لي أن أعلم رضاك عني؟ فأوحى إليه: انظر كيف رضا المساكين عنك.

۞ وقال موسى عليه السلام: إلهي أين أبغيك؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم.

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض، ج١ ص ١٨٦.

۞ وقيل: ما كان من كلمة تقال لعيسى عليه السلام أحب إليه من أن يقال له يا مسكين.

۞ وقد كان سليمان عليه السلام في ملكه إذا دخل المسجد فرأى مسكيناً جلس إليه وقال: « مسكينٌ جالس مسكيناً » (١).

۞ وكان من دعاء رسول الرحمة ﷺ : (اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ)(٢).

وكان الوفد إذا قدموا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه سألهم عن أميرهم، فيقولون خيراً، فيقول: هل يعود مرضاكم؟ فيقولون: نعم، فيقول: هل يعود العبد؟. فيقولون: نعم، فيقول: كيف صنيعه بالضعيف؟ هل يجلس على بابه؟ فإنْ قالوا لخصلة منها لا؛ عزله. فكان يعزل العامل (الوالي) إذا بلغه أنه لا يعود المريض ولا يدخل عليه الضعيف (٣).

---

(١) راجع هذه النقول في: إحياء علوم الدين، للغزالي، ج٢ ص ٢٠٧.

(٢) أخرجه الترمذي برقم ٢٢٧٥، وابن ماجة برقم ٤١١٦، والحاكم في المستدرك برقم ٨٠٢٨، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١٣٨٠، وفي السنن الكبرى ج٧ ص ١٢، وصححه الحاكم والألباني في صحيح وضعيف الترمذي برقم ٢٣٥٢، وفي صحيح ابن ماجة برقم ٤١٢٦، وفي السلسلة الصحيحة برقم ٣٠٨، وفي الإرواء برقم ٨٦١.

(٣) سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، د. علي الصلابي ص ٣٢٨، نقلاً عن الولاية على البلدان، د. عمر بن عبد العزيز، ج٢ ص ٨٢.

٥ـ لا تتعجَّلْ طيباتك في الدنيا:

كثيرٌ ممن يتولَّى منصباً رفيعاً تراه يسارع الخطى لاستجلاب كل لـذّة أو نفـع أو مال أو جاه أو متعة أو تجارة أو بيـع أو اسـتيراد أو تصـدير أو غـير ذلـك ممـا يتنافس عليها الكبراء وطلاب الدنيا من أصحاب المناصب العليا.

وهذا ـ دون أن يشعروا ـ تعجُّلٌ مذمومٌ لاستنفاد طيباتهم وإذهابها في الحياة الدنيا، لا يتركون لآخرتهم شيئاً، تماماً كما يفعل من يظنون أنهم لا خلاق لهـم في الآخرة، وتشبّه بحال الكافرين الذين قال الله في حـالهم: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الأحقاف: ٢٠].

قال حفص بن أبي العاصي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنـا نتغـدَّى عنـد عمـر بـن الخطـاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بخبز جشب، وكان ينهى الناس أن ينخلوا الدقيق ويقـول: هـو طعـام، فنتغدَّى ثريداً بلبن، أو ثريداً بلحـم غلـيظ، فـلا يأكـل القـوم. فقلـت: يـا أمـير المؤمنين إنهم يرجعون إلى طعام هو ألين منه. فقال رضي الله عنه: أو ما كنت تراني أحسن أعمد إلى صاع أو صاعي زبيب فيرش عليه من المـاء ثـم يصـفى كأنـه دم الغزال، وأعمد إلى صاع أو صاعي دقيـق فيحـور لي، وأعمـد إلى عنـاق فتـذبح ويلقى عنها شعرها، ثم تخرج من التنور كأنه صنا؟ قلـت: يـا أمـير المـؤمنين إني أراك عالماً بطيب الطعام؟ قال: أجل والله الذي لا إله إلا هو، ولكني لا أتعجـل طيبـاتي وقـد سـمعت الله ذكـر قومـاً فقـال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا

وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾اهـ[1].

٦ـ كُنْ ملكاً في الدنيا والآخرة:

لا ترمي بنظرك تحت قدميك فتعيش في الدنيا للدنيا، بل مد بصرك إلى ما بعد الدنيا، وجلْ بنظرك في جنان الرحمن واختر مقاعدك ومصاعدك ودورك وقصورك وحورك، عش في الدنيا للآخرة، تملك الدنيا وترجو الآخرة، أسْعِد الناسَ بولايتك، راع مصالحهم بصدق، ودبر شؤونهم بهمّة، وأدر أمرهم بحرص، تكون ملكاً في الدنيا وملكاً في الآخرة، ومن كمُل عقله؛ فهو ذاك الذي يطمع في ملك الدنيا والآخرة، ومن قلّ عقله وسفُل همّه ودنت همته؛ هو من عاش ملكاً معظماً مكّرماً في الدنيا، ثم إذا بُعث في الآخرة ذلّ وهان وسِيق إلى سوء المصير، فوصيتي لكل مسؤول مسلم أن يكون ملكاً في الدنيا والآخرة، كما وصّى محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمن قال له: أوصني. فقال محمد بن واسع: "أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة"[2].

ذاك هو المُلك الذي لا يبلَى.. والعزّ الذي لا يفنَى.. ذاك هو الشرف الأسمى والجاه الأسنَى..

---

(١) كتاب الزهد لأبي داود برقم ٦٩، ص ٧٣.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، ج٥ ص ١٥٩، رسالة المسترشدين، للحارث المحاسبي، ص ١٦١، هامش تحقيق عبد الفتاح أبو غدة.

٧ـ لا تجعل أعوانَك خُوَّانَك:

أسِّسْهُم على تقوى الله، ووجِّههم إلى رضوانه، وأَعْلمهم ما عليهم وعرّفهم ما يليهم، فجاهل الشيء يعاديه، والغافل عن المطلوب مسلوب، فيفسد من حيث يبتغي الإصلاح، ويضرّ ـ من حيث يريد النفع، فيكون في الواقع من خُوَّانك وهو في الحقيقة من أعوانك.

ومن مواقف المسؤولين الحكماء في هذا الباب ما رُوي أنّ المنصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَمَّا ولَّى أحمد بن معاوية بن أبي بكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قضاء البصرة أوصاه، فكتب إليه، فقال: «إني قد قلدتك طوقاً مما قلدني الله، فأغلقت في عنقك طرفه، وأبقيت في عنقي ربقته، وإني لم آل جهداً إذ وليتك، لما ظهر لي منك، من حسن فعلك، وعلى الله إصلاح باطنك، لا أعلم الغيب فلا أخطئ، ولا أدعي معرفة ما لم يعلمني ربي، فاتق الله وأطعني إِذَا لم أعد بطاعتي من فوقي، ولا يحملنك خوفي، واتباع محبتي على أن تطيعني في معصية ربي، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً، ولا تغنيه عني، إنك حجاب بين الله وبيني، وأمانة مني على رعيتي، قلدتك أحكامهم إن كنت أمامهم، فلا يعدلن الحق عندك شيء، ولا يكونن أحداً أكرمُس عليك من نفسك سلط الله عليها عزمك قبل تسلطها عليك، في حكمك، قد أبلغتك وما عليَّ إِلَّا الجهد» اهـ[1].

فبيّن له كل ما يجب أن يعرفه من مهام ومقام ومنهاج حتى يعرف أين يكون

(١) أخبار القضاة، للضبي، ج٢ ص٩٢.

من السلطان الحاكم، وكيف يكون مع الأمة والرعية، وماذا يكون مع ربه حتى يكون مسؤولاً عما استرعاه الله وولاّه السلطان، وإلاَّ أضاع نفسه وأضاع أمانته وأضاع من ولاّه واستعمله.

وبعد؛

فهذه بعض الوصايا والنصائح رجوت أن تكون نافعة معينة على إصلاح الذات وإعلاء الهمة لنعود بالأمة إلى سيرتها الرائعة البديعة التي بها ملكنا الدنيا وسدنا العالم ورضي بنا العالم شرقاً وغرباً، محبة وقناعة.

اللهم اجعل عملنا كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أهم المصادر والمراجع

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، دار الكتب العليمة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
- أخبار القضاة، لوكيع الضبي، أَبُي بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفِ بْنِ حَيَّانَ بْنِ صَدَقَةَ الضَّبِّيّ البَغْدَادِيّ، حققه وصححه و علق عليه و خرّج أحاديثه: عبد العزيز مصطفى المراغي. المكتبة التجارية الكبرى. الطبعة الأولى عام ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م.
- الانشراحُ وَرَفعُ الضِّيق في سِيرة أبي بَكْر الصِّديق رَضِيَاللهُعَنْهُ شخصيته وَعَصره، عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة - مصر،١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه علي شيري، نشر دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- بدائع السلك في طبائع الملك، لأبي عبد الله محمد بن علي بن الأزرق.
- بهجة المَجالِس وأنس المُجالس، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي.
- تاريخ أبي زرعة الدمشقي، للإمام عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن

صفوان النصري المشهور بأبي زرعة الدمشقي. بدون.

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام.شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي؛ تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري ،دار الكتاب العربي: بيروت. الطبعة: الأولى. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- تاريخ الرسل والملوك، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري.
- تاريخ المدينة - ابن شبة ، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري .
- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الاماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها ، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر؛ دراسة وتحقيق علي شيري،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- التبر المسبوك في نصيحة الملوك،للإمام الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد الغزالي.
- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي الدار التونسية للنشر ، تونس، طبعة ١٩٨٤ هـ.
- تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، نجم الدين إبراهيم بن علي الحنفي الطَّرَسوسي، تحقيق عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي، الطبعة الثانية.
- التذكرة الحمدونية، ابن حمدون.، محمد بن الحسن بن محمد بن علي.

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي، بدون.
- تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن]: لأَبي عَبْدِ اللهَّ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي؛تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.
- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي .
- ذيل مرآة الزمان، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني.
- زاد المسير في علم التفسير،عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي،المكتب الإسلامي: بيروت، الطبعة الثالثة ، طبعة ١٤٠٤هـ.
- الزواجر عن اقتراف الكبائر ، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي، بدون تاريخ ونشر.
- سراج الملوك، للطرطوشي، أبي بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي نشر من أوائل المطبوعات العربية مصر، ١٢٨٩هـ، ١٨٧٢م
- سنن أبي داود،لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني. دار الكتاب العربي: بيروت

- سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى ؛المحقق: بشار عواد معروف: دار الغرب الإسلامي - بيروت، طبعة ١٩٩٨ م
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، نشر المملكة العربية السعودية، طبعة ١٤١٩هـ..
- سير أعلام النبلاء،للإمام الذهبي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي؛تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط.مؤسسة الرسالة،الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.
- سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شخصيته وعصره، د. علي محمد الصلابي، طبعة ١٤٢٦ - ٢٠٠٥م، مؤسسة اقرأ .
- شرح السنة، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي؛تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي : دمشق، بيروت.الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
- شعب الإيمان للبيهقي،عمر بن عبد الرحمن القزويني أبي المعالي؛ تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط.دار ابن كثير دمشق،الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ .
- صحيح البخاري ،محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ؛المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر؛ شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا ، دار طوق النجاة ،الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ

- صحيح مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ،دار الجيل بيروت ؛ دار الأفاق الجديدة ـ بيروت
- صفة الصفوة،لابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبي الفرج؛ تحقيق: محمود فاخوري؛ د.محمد رواس قلعه جي دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ - ١٩٧٩م.
- الطبقات الكبرى،محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري،دار صادر : بيروت
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية،لابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله؛ تحقيق : محمد جميل غازي، مطبعة المدني - القاهرة.
- عصر الخلافة الراشدة(محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين)، أكرم ضياء العمري، مكتبة العبيكان.
- عيون الأخبار، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.
- غريب الحديث،القاسم بن سلام الهروي أبي عبيد؛ تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان.ار الكتاب العربي: بيروت،الطبعة الأولى ، ١٣٩٦هـ..
- فتح الباري شرح صحيح البخاري ،للحافظ ابن حجر ، أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت ، ١٣٧٩هـ.
- فتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار، الحسن بن أحمد بن يوسف بن

محمد بن أحمد الرُّباعي الصنعاني تحقيق علي العمران، دار عالم الفوائد،الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ.

- فضيلة العادلين من الولاة ومن أنعم النظر في حال العمال والسعاة، لأبي نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني تحقيق مشهور بن حسن أل سلمان ،دار الوطن :الرياض، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ .
- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، عز الدين أبي الحسن الجزري.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، لابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله.دار الكتب العلمية:بيروت.
- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار،أبي بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي؛المحقق: كمال يوسف الحوت.مكتبة الرشد:الرياض،الطبعة: الأولى، ١٤٠٩
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري؛تحقيق : بكري حياني - صفوة السقا.مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة ،١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .
- لسان العرب،محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري،دار صادر :بيروت،الطبعة الأولى.
- مآثر الإنافة في معالم الخلافة، أحمد بن عبد الله القلقشندي، تحقيق : عبد

الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت الطبعة الثانية ١٩٨٥.

- المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي دار ابن حزم : بيروت . الطبعة : الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م. وبتحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، طبعة ١٤١٩هـ نشر جمعية التربية الإسلامية البحرين.
- مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ وَمَنْبَعُ الفَوَائِدِ،لِلحَافِظِ نُورِ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي بَكْر الهَيْثَمِي حَقَّقَهُ وخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ حسين سليم أسد الدّاراني دَارُ المَأْمُون لِلتُّرَاثِ، دمشق، بدون.
- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، علي بن إسماعيل بن سيدة.
- مختصر تاريخ دمشق،محمد بن مكرم بن منظور. الأفريقي.
- المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداءعماد الدين إسماعيل بن كثير.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله؛ تحقيق : محمد حامد الفقي.دار الكتاب العربي: بيروت الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ - ١٩٧٣.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، لأبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، بدون.
- مساوئ الأخلاق للخرائطي، أبي بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي.

- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري؛ تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية : بيروت،الطبعة الأولى ، ١٤١١ - ١٩٩٠
- مسند أبي داود الطيالسي، سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي، دار المعرفة - بيروت .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة : القاهرة
- مسند الشاميين،للطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطبراني؛ تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي. مؤسسة الرسالة بيروت،الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ - ١٩٨٤.
- مسند الشهاب، محمد بن سلامة بن جعفر أبي عبد الله القضاعي، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مؤسسة الرسالة - بيروت،الطبعة الثانية ، ١٤٠٧ - ١٩٨٦.
- معالم التنزيل،لمحيي السنة البغوي، أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش،دار طيبة للنشر والتوزيع،الطبعة الرابعة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م
- المعجم الأوسط ،أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني؛ تحقيق : طارق بن

عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني: دار الحرمين - القاهرة ، ١٤١٥

- المعجم الكبير،للطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطبراني؛ تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي ،مكتبة العلوم والحكم: الموصل.الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ - ١٩٨٣.
- معرفة السنن والآثار للإمام البيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية بيروت، بدون.
- المقتبس من أنباء الأندلس، لحيان بن خلف بن حيان القرطبي.
- مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون، بدون.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، دار صادر بيروت،الطبعة الأولى ، .١٣٥٨
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي.
- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار،محمد بن علي بن محمد الشوكاني، إدارة الطباعة المنيرية.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
المقدمة	٧
الفصل الأول- الوظيفة العامة وحكمها التكليفي.	١١
المبحث الأول - مفهوم الوظيفة العامة.	١٣
تعريف المسؤولية	١٥
المبحث الثاني - الحكم التكليفي للوظيفة العامة..	١٩
المبحث الثالث - الوظائف بين التقليد والتقلد..	٢٣
الموقف السليم للمسلم من طلب المنصب	٢٤
حالات جواز طلب المنصب	٢٩
الحالة الأولى	٢٩
الحالة الثانية	٣٠
الحالة الثالثة	٣٠
الحالة الرابعة	٣١
الفصل الثاني - مناصب التوظيف ومثالب التكليف.	٣٣
إنها أمانة	٣٦
أسباب الخيانة فيها مشرعة	٣٧
نعمت المرضعة وبئست الفاطمة	٤٠
الغرور المفضي إلى الشرور	٤٢

مسك القرون لحلوب الرعية	٤٥
شواغل تنوء بالكواهل	٤٦
أخطاء وخطيئات	٥٠
العلو والتعالي	٥٢
فقدان الورع	٥٤
حب الدنيا والتنافس عليها	٥٦
حالات تعلق المسؤولين بالدنيا	٥٨
الحالة الأولى	٥٨
الحالة الثانية	٥٩
الحالة الثالثة	٥٩
تلبيس إبليس على المسؤولين	٦١
حبّ الرياسة	٦٧
التشبث بالمنصب	٧٠
الفصل الثالث – في عظم الحساب	٧٣
المبحث الأول – عظم المحاسبة.	٧٦
صور من خوف الصالحين من عاقبة الولاية	٧٩
أولاً: أبوبكر الصديق رضي الله عنه	٧٩
ثانياً :عمر بن الخطاب رضي الله عنه	٨٠
ثالثاً :هرم بن حيان رضي الله عنه	٨١
رابعاً :عمر بن عبد العزيز رحمه الله	٨١
المبحث الثاني – عظم المعاقبة	٨٣
ماينتظر المسؤولين المتولين أمور المسلمين	٨٣

أولاً: المسؤول المحابي	٨٣
ثانياً : المسؤول المقصر	٨٤
ثالثاً: المسؤول الغاش رعيته	٨٥
رابعاً: المسؤول المختلس	٨٧
خامساً:المسؤول المتساهل في المال العام	٨٨
سادساً: المسؤول الغاصب	٩١
سابعاً: المسؤول الظلوم الغشوم	٩٣
ثامناً:المسؤول المحتجب	٩٤
تاسعاً: المسؤول الشاق على أمته	٩٦
عاشراً: المسؤول المتعاظم في نفسه	٩٦
المبحث الثالث – زهد أئمة الأمة في المناصب	١٠٠
خاتمة ناصحة	١١٥
كن خادم قومك ورعيتك	١١٥
كن واحداً منهم	١١٦
لا تقف إلا مواقف إرضاء المؤمنين وإغاظة الكافرين	١١٧
انظر كيف رضا المساكين عنك	١٢١
لا تتعجل طيباتك في الدنيا	١٢٣
كن ملكاً في الدنيا والآخرة	١٢٤
لا تجعل أعوانك خوانك	١٢٥
المصادر والمراجع	١٢٧
فهرس المحتويات	١٣٦

رقم الإيداع: ٦٤٤ | ٢٠١٥